وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَا ﴿١١﴾

التفسير: هذه الآية توضح المعنى الذي قد لمّحت إليه الآية السابقة، حيث يعلن الله تعالى أنه ما من أمة تتغافل عن مصيرها إلا وتقع في العذاب في آخر المطاف.

علمًا أن ﴿الآخرة﴾ تعني ما يأتي فيما بعد، ولكن بما أن هذه الكلمة قد تكررت في القرآن الكريم كثيرًا بمعنى يوم الآخرة أيضًا فقد ترسَّخَ في أذهان الناس أنها لا تعني إلا يوم القيامة. وهذا خطأٌ، لأن ﴿الآخرة﴾ لا تعني في الأصل إلا الشيء الآتي فيما بعد، فلذا يجب أن نفسرها بما يتلاءم مع السياق. وأرى أنها تعني هنا "مصير الأمم"، فهو المعنى الأكثر انطباقًا هنا بالنظر إلى السياق؛ والمراد من هذه الآية أن الأمة التي تنسى أن لكل شمس أُفولاً، وتتغافل عن مصيرها، لا بد أن تتقاعس عن أداء مسؤولياتها، وبالتالي تستحق عذاب الله تعالى. فعلى كل أمة أن تضع مصيرها في الحسبان دومًا، وتُصلح مسارها عند تسرُّب أي فساد إليه، لكي توهب الحياة من جديد، وتنجو من عذاب الله تعالى.

والواو الداخلة على هذه الآية هي للعطف، وتؤكد ما ذهبتُ إليه من أن "الآخرة" لا تعني هنا القيامة، بل تعني "مصير الأمم"، لأن العطف يبين أن الخطاب هنا مازال موجّهًا إلى المسلمين، والظاهر أن المسلمين يؤمنون بالآخرة وليسوا بمنكرين لها.

وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولاً ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

يدعو: دعاه دعاءً ودعوى: رغب إليه. دعا زيدًا: استعانه. دعا فلانًا: ناداه وصاح به. دعاه إلى الأمر: ساقه إليه. دعا فلانا دعوةً ومدعاةً: طلَبه ليأكل عنده

(الأقرب). وكل شيء إذا احتاج إلى شيء فقد دعا به. يقال لمن أَخلقَتْ ثيابُه: دَعَتْ ثيابُك أي احتجتَ أن تلبَس غيره. دعا بالكتاب: استحضره (التاج).

الخير: راجع شرح الآية رقم ٣١ من سورة النحل.

عَجولاً: العَجولُ المسرِعُ؛ الكثيُر العَجَلة (الأقرب).

التفسير: إن هذه الآية تؤكد المعنى الذي بيّنتُه آنفًا، إذ لا تتحدث عن القيامة، بل تذكر ما ذكرتُ، وكذلك الآيات التالية أيضًا تتحدث عن الموضوع نفسه.

وقبل أن أتناول هذه الآية بالشرح والتفصيل، أود أن أرسّخ معناها جيدًا. فليكن معلومًا أن هناك فرقًا كبيرًا بين (دعاه) و(دعا به)، لأن (دعاه) يعني: رغِب إليه، أو ناداه، أو استعان به، وأما (دعا به) فيعني: طلب منه أن يحضر إليه. وعليه فتعني هذه الآية أن الإنسان ينادي – في الظاهر – الخيرَ ليأتي إليه، مع أنه ينادي الشرَّ في واقع الأمر، أو يكون المعنى: أنه ينادي الشرَّ بالإلحاح الذي يجب أن ينادي به الخيرَ. وحسب المعنى الأول تبين هذه الآية أن الأمم زمنَ رقيها تنسى أنها قد أُعطيت هذا الازدهار لكي ترسخ الدينَ والأمانة في العالم، وتعمل على ما يحقق الأمن والرخاء للإنسانية جمعاء، لتَرِثَ أفضالَ الله تعالى؛ ولكنها تعمل النقيض وتنشغل في جمع النعم المادية، غاضّةً الطرف عن أداء حقوق الآخرين. وتظن – وهي تجمع أسباب الرخاء المادي هذه – أنها تجمع أسباب الخير لأجيالها، مع أنها في الواقع تجمع أسباب دمارها، غافلةً عن أداء المسؤولية الملقاة على عاتقها، والنتيجة أن مثل هذه الأمة تهلك في آخر المطاف.

إذن فالساعة التي يحقق فيها شعبٌ ما الغلبةَ والرقي هي ساعةٌ جدُّ خطيرة، إذ يغيب بَعدَها الخيرُ الحقيقي عن أنظار الناس، فيحسبون الشر خيرًا ويتبعونه، فيَضلّون عن سواء السبيل.

وأما قوله تعالى ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولا﴾ فإشارة إلى أن الخير الذي يناله المؤمن إنما يظفَر به بعد الموت، لأن المؤمن إنما يوهب الانتصاراتِ الماديةَ لتتاح له الفرصة

للفوز بالخير الأخروي، ولكن بعض الناس يتعجلون، فيحسبون الرقي المادي هو الخير الحقيقي، فينهمكون في تحقيقه، فيصبحون كالباحث عن حتفه بظلفه.

فالآية تحذر أنه إذا ما أحرز قوم من الأقوام رقيًّا ماديًّا، ونالوا الحكم أو الثروة مثلاً، فعليهم أن يأتوا بأعمال تساعد على بقاء تلك النعمة المادية فيهم، ويدّخروا بها الخير الأخروي لهم، بدلا من أن يفعلوا ما يؤدي إلى زوال تلك النعمة عنهم، فتنفلت من أيديهم فرصة كسب نعم الآخرة أيضًا.

وستعني هذه الآية نظرًا إلى المعنى الثاني: أن الإنسان مخلوق عجيب! يطلب الخيرَ ويتمناه بلسانه، ولكنه يطلب الشر بعمله. وكأنه بسبب غبائه يطالب بأمرين نقيضين: الخير بلسانه، والشر بعمله! مع أنه لا يمكن أن يحرز الفلاحَ الحقيقي ما لم يكن قلبه وعمله في انسجام تام، بمعنى أنه إذا كان يتمنى الخير بقلبه فليطلب الخير بعمله أيضًا.

ويمكن أن تفسَّر الآية بطريق آخر، وذلك باعتبار ضمير الغائب في ﴿دعاءَه﴾ راجعًا إلى الإنسان، وباعتبار الله تعالى فاعلا لفعل الدعاء.. أي أن الإنسان يدعو الشر بنفس الحماس الذي يدعوه به اللهُ إلى الخير. وكأنه تعالى يقول: أيها الإنسان تعال إلى الخير، ولكنه يقول: أيها الشر تعال أنت إلي. وبمعنى آخر: إن الله تعالى يهيئ للناس أسباب الخير، ولكن بعضهم يدعون بأعمالهم الشر لأنفسهم، ويهيئون لهم أسباب الدمار.

لقد نبّه ﷻ بكلمة ﴿عَجولاً﴾ إلى أن الإنسان لا يُعمل الفكر ولا يتأنى في العمل، ولو فعل ذلك لأدرك خطأه. لقد قال النبي ﷺ ما معناه أن الغاضب لو توقف قليلاً لهدأت ثورة غضبه، ولوجد فسحة للتفكر (مسند أحمد مجلد ٥ ص ١٥٢). والحق أن العجلة سبب السيئات كلها. ولو أن الإنسان تأنّى قليلاً قبل ارتكاب سيئة من السيئات، وفكّر في نفسه مليًّا: هل إتيانها سيضرّه أم ينفعه، لتَجنَّبَ ارتكابها .

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

مبصرةً: أبصَرَه: رآه؛ أخبره بما وقعتْ عينُه عليه؛ جعَله بصيرًا. وأبصرَ الطريقُ: استبان ووضَح (الأقرب).

محونا: محا الشيءَ: أزاله وأذهبَ أثرَه (الأقرب). المحو: السوادُ في القمر (التاج).

فضلاً: الفضل: ضدُّ النقص؛ البقيةُ؛ الزيادةُ؛ الإحسانُ. والفضل في الخير يُستعمل لمطلق النفع (الأقرب).

عدد: العدد: اسمٌ من عَدَّ بمعنى الإحصاء؛ المعدودُ، وجمعُه أعداد (الأقرب).

التفسير: الفاء في قوله تعالى ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ تفسيرية وليست للترتيب، إذ ليس المعنى أننا جعلنا الليل والنهار ثم محونا الليل منهما، وإنما المراد أننا خلقنا الليل والنهار كما لو أن الليل آية مَمحوّة، والنهار آية مضيئة.. أي أن الله تعالى جعل للناس في الليل منافع خفية، وفي النهار فوائد جلية، وكلاهما نافع لهم، حيث يستعينون بهما في معرفة الأيام والتواريخ وعلم الحساب. وفائدة معرفة التواريخ والأيام بواسطة القمر والشمس واضحة بيّنة لا تحتاج إلى توضيح، وأما علم الحساب فأيضا حصل نتيجة حفظ الناس الأيامَ خلال فترات طويلة متعاقبة، وكذلك نتيجة كون تحديد موعد السنة مرتبطًا بالقمر والشمس. والحق أن إعداد التقويم الصحيح مستحيل بدون معرفة سرعة حركة الشمس. وإن معرفة دوران القمر والشمس أيضًا ذاتُ علاقة بالحساب، لأن الإنسان أثناء تفكيره لمعرفة حركتهما يحتاج إلى حسابات دقيقة جدًّا حتى إنه لم يتمكن إلى اليوم من تكميل

حساب دوران الشمس، ومن أجل ذلك ظل يرتكب في تحديد السنة الشمسية أخطاءً ولا يزال يصححها مع تطور علم الحساب.

لقد نبه الله تعالى بهذا أن الآيات الإلهية نوعان: آيات تساعد الإنسان على التقدم والرقي، وآيات تدفعه إلى الزوال والدمار. فاطلبوا من الله آيات التقدم والازدهار، ولا تطلبوا الآيات التي تمحو أثركم.

كما أوصانا الله تعالى أن تستغل، لبلوغ الكمالات الروحانية، حالتَي الرقي والزوال كلتيهما، مثلما جعل الله تعالى كُلاً من الليلِ الذي هو آية الظلام والنهارِ الذي هو آية النور سببًا لرقينا المادي؛ فلا ننسى الله وقتَ الشدائد، ولا نُعرض عنه زمنَ الانتصارات.

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

ألزمناه: أَلْزَمَ الشيءَ: أثبتَه وأدامَه. وألزمَ فلانًا المالَ والعملَ: أوجبَه عليه (الأقرب).

طائرَه: الطائر: كلُّ ذي جناح من الحيوان؛ الحظُّ؛ رزقُ الإنسان؛ عملُه الذي قلِّده وطارَ عنه من خير أو شر. "هو ميمون الطائر" أي مبارك الطلعة. "سِرْ على الطائر الميمون" دعاءٌ للمسافر. "هو ساكنُ الطائر" أي حليمٌ هادئ (الأقرب).

منشورًا: نشَر الكتابَ: بسَطه (الأقرب).

التفسير: لقد أخبرنا الله تعالى هنا أنه قد ربط عمل الإنسان بعنقه، وأنه سيأتي به يوم القيامة في صورة كتاب مفتوح أمامه، بمعنى أنه تعالى سوف يعامل

الإنسان بحسب ما ورد في ذلك الكتاب، لأن السجلات الحسابية إنما تُفتَح إما لتسجيل شيء جديد فيها، أو لإنهاء الحساب السابق كلية.

لقد نبّهنا الله ﷻ هنا أن كل إنسان يجب أن يدرك أن لا شيءَ من أعماله يضيع أبدًا، لأن الله تعالى قد ألصق سجلّ أعماله بعنقه. وإلصاق الشيء بالعنق دلالة على أنه لن يبرحه أبدًا، بل سيلازمه دائمًا، فما دام هذا السجل باقيًا سيبقى تأثير أعماله ساريًا.

وأشار ﷻ باستعمال كلمة (طائر) إلى أن الطائر كما يطير ويغيب عن الأنظار، كذلك ينسى الإنسان عملَه، فيغيب عن نظره، بل ينساه غيرُه من الناس أيضًا؛ ولكنه طائر مربوط بحبل في عنق صاحبه، لذا لن تنقطع صلته به، وإن طار وغاب عن الأنظار، بل لا بد أن تظهر له عواقب أعماله في يوم من الأيام.

كما أن هذا التعبير ينبّه إلى أمر هام آخر، ألا وهو أن الطائر المربوطة رِجلُه بخيط طويل إذا خُلِّي سبيله، فإنه يطير إلى أبعد حد ممكن بحسب طول الخيط، كذلك حال أعمال الإنسان، فإنها لا تظهر أحيانًا ذات خطورة في بادي الرأي، بينما يكون تأثيرها بعيد المدى. وكأن الله تعالى يوصينا هنا بأخذ الحذر الشديد في أعمالنا، لأن الإنسان إذا ما قام بعمل من الأعمال فلا يبقى لـــه أي خيار ولا تصرف في ذلك العمل، كما أن نتائجه تكون واسعة المَدى؛ ثم إن عمله غائب عن أنظاره مع أنه في الحقيقة ملازم له دومًا، وهذا يعني أن محو ذلك العمل صعب للغاية؛ لذا هناك حاجة ماسة لأخذ الحذر، لأن عاقبة عمله آتيةٌ لا محالة، عاجلاً أو آجلاً.

وقد نبه ﷻ إلى ذلك لأن الإنسان يظن أحيانًا أن عمله قد طار مثل الطائر، ولكنه في الواقع طائر مربوط بحبل، وهو راجع حتمًا في آخر المطاف، ولا مناص لصاحب العمل من أن يذوق وبال أمره. وقد أكد القرآن الكريم ذلك في موضع آخر منه حيث قال ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

شَرًّا يَرَهُ﴾(الزلزلة: ٨ و٩).. أي أن كل عمل يعمله الإنسان، خيرًا أو شرًّا، ولو ضئيلا كالنملة الحمراء أو الذرات التي تطير في الهواء، فلا بد أن يرى عاقبته.

وليس المراد من هذه الآية أن توبة هذا الإنسان لن تُقبَل. إن توبته ستُقبَل، ولكن الإثم سيجعله أدنى درجة من الآخرين حتمًا. فمثلاً هناك شخصان متساويان في الحسنات، فارتكب أحدهما سيئةً، ثم تاب عنها، فتاب الله عليه، وغفر له ذنبه؛ بينما عمل الآخرُ في هذه الأثناء حسنةً، فالتائب يظل في سُلّم الحسنات حيث كان، ولكن الذي فعل الحسنة سيتقدمه بدرجة. إذن فالله تعالى سوف يغفر للمسيء التائب بسبب توبته، ولكن لا يمكن أن يُلحقه الله بصاحبه الذي لم يرتكب تلك السيئة، بل سيظل هذا أفضل منه درجة.

وإذًا فكل عمل يُعقب نتيجةً. ويمكن فهم هذا المعنى الآن بسهولة بعد اكتشاف اللاسلكي والتلغراف والتلفون، الذي يؤكد أن كل حركة – مهما كانت ضئيلة– لا تنفك تهتز وتنتشر في الجو لمسافات هائلة. فعلى الإنسان أن يكون شديد الحذر في أعماله، لأن كل عمل هو كالبَذرة التي تُنتج شجرةً جديدة، ولا يزال يزداد ويتضخم دون علم الإنسان.

ورد في الحديث الشريف أن كل عمل يترك تأثيره على قلب الإنسان، فإن عمل حسنة صارت تلك الحسنة بقعة نورانية في قلبه، حتى ينوّر قلبه كله بزيادة الحسنات، فتُكتَب له النجاة. أما إذا ارتكب سيئة صارت تلك السيئة بقعة سوداء في قلبه، حتى يسودّ قلبه كله بزيادة الذنوب، فيهلك.*

هذا، وقد قال البعض أن ﴿طائره﴾ يعني نصيبه وحظه، أي ما كُتب له عند القسمة منذ الأزل (القرطبي). ولكن هذا غير صحيح، لأنه تعالى قد أشار

* ورد في الحديث: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إن المؤمن إذا أذنبَ كانت نكتةٌ سوداء في قلبه، فإن تاب ونزَع واستغفرَ صُقِلَ قلبُه، فإن زاد زادت؛ فذلك الرانُ الذي ذكره الله في كتابه ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون ﴾(ابن ماجة: كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب).

بـــكلمة ﴿طائره﴾ إلى أن الإنسان هو صانع عمله، أما لو كان المراد بها ما قسم الله له لسمّاه حجرًا أو طوقًا، لا طائرًا.

وقد يعني قوله تعالى ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أن الفال – الخير منه أو الشر– معلَّق بعنق الإنسان، ولكنه يبحث عنه عبثًا في الأشياء الأخرى.

وقد استخدم الله تعالى كلمة ﴿عنقه﴾ تنبيهًا إلى أن من طبيعة الإنسان أنه إذا عمل الخير رفع رأسه عزّةً وتفاخرًا، وإذا ارتكب السيئة نكس رأسه خزيًا وهوانًا. فعليه أن يقوم بمحاسبة أعماله بعنقه أي رأسه، بمعنى أن عليه أن يرى هل في عمله ما يجعله فخورا مرفوع الرأس بين زملائه الذين هم موضع أسراره أم لا؟ فإذا كان قلبه وزملاؤه يعتبرونه بريئًا من العيوب فليعلم أن قدمه على الخير، أما إذا لامه ضميره أو أن أصحاب أسراره وجدوا فيه شتى أنواع النجاسات فماذا عساه ينتفع لو رفع رأسه بين القوم تفاخرًا.

أما قوله تعالى ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ فالمراد من الكتاب هو الجزاء، حيث يقولون: كتَب عليه كذا أي قضى به عليه.

والمراد من قوله تعالى ﴿يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ أن جزاء أعماله سيبدأ في الظهور هنالك، ولن يبقى مخفيًّا كالبذر، بل سينتشر كالشجرة انتشارًا، ويأتي بثماره.

ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

حسيبًا: الحسيب والمحاسبُ: مَن يحاسبك (المفردات).

التفسير: قوله تعالى ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ يعني: تَحمَّلْ الآن عقابَك، واستمرَّ في مذاكرة هذا الدرس.

أما قوله تعالى ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ فيبيّن أن العقاب لن يأتي من الخارج، بل سينبع من داخل الإنسان. فكل ما يجد في الجحيم إنما هو سيئاته التي

ستتمثل له صنوفًا من العذاب، وكل ما يجد في الجنة إنما هو حسناته التي ستتراءى له ألوانًا من النعم. فكأن الله تعالى لن يعاقب الإنسانَ، كما لن يعاقبه كائن آخر، بل إن الإنسان بنفسه سيجزي نفسَه أو يعاقبها.

مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

تَزِرُ: وَزَرَه يَزِرُه وِزْرًا: حمَله، وفي اللسان: حمَل ما يُثقل ظهرَه من الأشياء المثقلة. والوِزر: الإثمُ؛ الثِّقلُ؛ السلاحُ لثقله على حامله؛ الحِملُ الثقيل (الأقرب).

التفسير: هذه الآية شرح للآية السالفة حيث صرح الله تعالى فيها أن حسنات الإنسان لا تنفع إلا إياه، وأن سيئاته لا تضر إلا به. فما يفعله من شر أو خير إنما يفعله لنفسه لا لغيره. فالقاتلُ لا يزهق غيره بل نفسه، والظالم لا يعتدي على غيره بل على نفسه، والسارق لا يسرق مال غيره بل مال نفسه. وبالمثل فإن المتصدق لا ينفق إلا على نفسه، والواعظ لا يعظ إلا نفسه، والناصح لا ينصح ولا يهدي إلا نفسه.

ثم قال الله تعالى ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.. أي لا يمكن أن يحمل أحد حملَ غيره.

يفرح المسيحيون بقراءة هذه الآية زاعمين أنها تؤيد عقيدة الكفّارة المسيحية حيث يقولون: نحن أيضًا نقول أن الآثم لا يمكن أن يحمل عبءَ آثم آخر، وإنما الشخص الصالح الذي يمكنه أن يحمل عبءَ الآثم؛ وبما أن المسيح كان صالحًا

فتمكّن من حمل أعباء الآثمين الآخرين، وبما أنه لم يكن ثمة صالح آخر سوى المسيح فلم يستطع أحدٌ غيرُه حملَ أعباء الآثمين الآخرين!!

أنا لا أريد هنا الخوض فيما إذا كان المسيح صالحًا أم لا بحسب العقيدة المسيحية، كما لا أود الخوض فيما إذا كان هناك صالح آخر غير المسيح أم لا وفق العقيدة الإسلامية، لأنه لا يصلح هذا المجال لمثل هذا النقاش، غير أنني أقول ردًّا عليهم: إن هذه الآية إنما تعلن أن أعمال الإنسان – سواء كانت حسنة أو سيئة – إنما هي لـــه أو عليه، ويستحيل أن يحمل عواقبها غيره.. بمعنى أن الثواب أو العقاب ليس بشيء يأتي من الخارج، وإنما هو ثمرة أعمال الإنسان نفسها. والظاهر أن البذر إنما ينبت ويثمر في المكان الذي يُبذر فيه، لا في أي مكان آخر. فمثلا إن شجرة المانجو المزروعة في مدينة لاهور لن تثمر في مدينة أمرتسار أبدًا. فما دام الثواب أو العقاب لا ينبع إلا من داخل صاحب العمل فيستحيل أن يشاطره فيه غيره، أو يعتبر نفسه مسؤولا عن عمل غيره. فالحق أن هذه الآية ترفض الكفارة المسيحية ولا تدعمها أبدًا، لأن الكفارة إنما تتأسس على فكرة أن العقوبة عبءٌ يُلقَى على الإنسان من الخارج، ويمكن أن يحمله غيره نيابةً عنه. وفرارًا من هذا الاعتراض قال المسيحيون بكون جهنم ماديّةً.

(Catechism of Christian Doctrine, vol. ٢ p ٥٩٩)

وقولهم هذا يدل على حمقهم وغبائهم، إذ من غير المعقول أن تكون الجنة روحانية، بينما تكون جهنم مادية. فإما أن تكون كلتاهما ماديتين أو روحانيتين. وإذا كانت جهنم روحانية كالجنة فلا يمكن أن يتحمل أحد عذابها نيابة عن غيره، إذ من المستحيل لأحد أن يتقاسم مع غيره ندمه وجشعه وحزنه وغضبه وما إلى ذلك. إنه لا يستطيع أن يتقاسمها مع غيره لأنها أشياء تنبع من داخل الإنسان، وتكون نفسُه مسؤولة عن حدوثها. ومثل هذه العقوبة إنما تنمحي فقط إذا فنِيت النفسُ حقيقةً أو مجازًا.. أي إذا تطهرتْ نتيجة شعورها بالندامة والخجل. ولا يمكن لأحد أن يشاطر غيره في فنائه هذا بشكل من الأشكال..

أعنى أنه من المستحيل لأي شخص عاقل أن يقول لغيره: لا تُرهق نفسك بالخجل، فأنا أَخجَل نيابة عنك. ومن قال ذلك فلا شك أنه مخبول مجنون. فما لهؤلاء المسيحيين الذين يسيئون إلى المسيح عبْدِ الله المختار حيث يعزون إليه مثل هذه الفكرة السخيفة؟!

أما قوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رسولا﴾ فقد فصّله القرآن الكريم في أماكن أخرى منها:

١- قوله تعالى ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ۝ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنا نَذِيرٌ﴾(المُلك: ٩ و١٠)

٢- وقوله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾(الزمر: ٧٢)

٣- وقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (فاطر: ٣٨)

٤- وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رسولا﴾ (القصص: ٦٠)

٥- وقوله ﴿وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(القصص: ٤٨).. أي بما أن هذا عذر معقول لذلك بعثنا إليهم الرسل دائمًا، ولم نعذبهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم وبعد أن كفروا برسلهم.

كل هذه الآيات تبيّن أن من سنة الله تعالى أن لا يُنـــزل العذاب على أي قوم دون أن يبعث إليهم رسولا، بمعنى أن المنطقة التي تكون رسالةُ رسول ذلك العصر موجَّهةً إلى أهلها لا تتعرض للعذاب ما لم يظهر بينهم رسول آخر – وإن كان تابعًا للنبي السابق – وما لم يقم بإنذارهم.

وقد يسأل هنا أحد: فما بال القوم الذين يذقون هذا العذاب و لم تقم عليهم الحجة؟ لقد جاء الجواب على ذلك في حديث ورد في مسند أحمد* بن حنبل والمروي عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: أربعة يحتجّون يوم القيامة: رجلٌ أَصَمُّ لا يسمع شيئًا، ورجل أحمقُ، ورجل هَرِمٌ، ورجل مات في فترة. فأما الأصم فيقول: رَبِّ، لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا؛ وأما الأحمق فيقول: جاء الإسلام والصبيانُ يَحذِفوني بالبَعْر؛ وأما الـــهَرِم فيقول: ربّ، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا؛ وأما الذي مات في الفترة فيقول: رَبِّ، ما أتاني لك رسول؟ فيأخذ سبحانه مواثيقَهم لَيُطيعُنَّه، فيرسل إليهم رسولاً أَنِ ادخُلوا النار. فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن لم يدخلها سُحب إليها" (روح المعاني).. أي أن الله ﷻ سوف يختبر هؤلاء يوم القيامة بهذا الطريق، فتنكشف فطرتهم على حقيقتها، ويُجزَون بحسبها.

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٧﴾

* ونـــصُّ الحديث: "عن الأسود بن سريع أن نبي الله ﷺ قال: أربعة يوم القيامة: رجل أصمُّ لا يسمع شيئا، ورجل أحمقُ، ورجل هَرِمٌ، ورجل مات في فترة. فأما الأصم فيقول: ربِّ، لقد جاء الإســـلام وما أسمع شيئا، وأما الأحمق فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذِفوني بالبَعْر، وأما الهرم فيقول: ربي لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئا، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ، ما أتاني لك رسول؟ فيأخذ مواثيقَهم لَيُطيعُنّه، فيرسل إليهم أَنِ ادخُلوا النار. قال: فوالذي نفسُ محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم بَرْدًا وسلامًا.... عن أبي رافع عن أبي هريرة مثلَ هذا، غير أنـــه قال في آخره: فمَن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومَن لم يدخلها يُسحب إليها" (مسند أحمد: مسند المدنيين رقم الحديث ١٥٧١٢)

شرح الكلمات:

مُترَفيها: المترَف: المتنعِّمُ لا يُمنَع مِن تنعُّمه؛ المتروكُ يصنع ما يشاء؛ الجبّارُ (التاج).

فسَقوا: فسَق الرجلُ فِسقًا وفسوقًا: ترَك أمرَ الله؛ عصى وجارَ عن قصد السبيل؛ خرَج عن طريق الحق. وفسَقت الرطبة عن قشرها: خرجت (الأقرب).

دمّرنا: دمّرهم وعليهم: أهلكهم (الأقرب).

التفسير: لقد نبه الله ﷻ هنا أنه يقضي بعذاب الأمم عند فسادها، فيرسل إليهم رسولاً ينذرهم بالعذاب، ولكنهم لا يصدّقونه، بل يرفضونه مستهزئين، فيأخذهم العذاب.

لقد فسر بعض أعداء الإسلام قوله تعالى ﴿أَمَرْنا مُتْرَفيها ففَسَقُوا فيها﴾ تفسيرًا خاطئًا، فقالوا أن القرآن يعلن هنا أن الله نفسه يأمر عليةَ القوم من القرية بارتكاب الفواحش، فيرتكبونها؛ ثم بناءً على تفسيرهم الخاطئ هذا يعترض هؤلاء: كيف يحثّ ﷻ المترَفين أوّلاً على ارتكاب الفواحش، ثم يعذبهم؟ فهذا خلاف العدل والنَّصَفة!

الحق أن تفسير هؤلاء الطاعنين المغرضين باطل تمامًا، إذ لو أخذنا بتفسيرهم لأصبحت هذه الجملة مدحًا للمترَفين، لأنها ستعني أن الله ﷻ يأمرهم بارتكاب الفواحش، ولكنهم يعصون أمر الله هذا - علمًا أن ﴿فسَقوا﴾ تعني عصَوا - وكأنهم رغم حث الله لهم على الفواحش لا يرتكبونها، بل يصبحون أكثرَ صلاحًا من ذي قبل! وهذا المعنى باطل بالبداهة، لأن هذه الآية جاءت في محل اللوم على المترفين.

ولو فسّرناها بأن الله ﷻ يحث المترَفين على الفواحش فيرتكبونها، لم تستقم كلمة ﴿فسَقوا﴾ في السياق، لأنهم ما داموا ارتكبوا الفواحش بأمر الله تعالى فلم يفسقوا أي لم يعصَوه ﷻ، بل أطاعوه.

فثبت أن تفسيرهم هذا دليل على جهلهم باللغة العربية، ولا يَرِدُ الاعتراض على القرآن الكريم في الواقع، وإنما على علمهم الناقص.

إن ما يقوله القرآن الكريم هو أن الله تعالى يعطي هؤلاء المترفين أوامره – وهي طبعًا أوامر حسنة لأنها منه ﷻ – ولكنهم يفسقون أي يعصون أوامره ﷻ. مع العلم أن المفعول الثاني لفعل ﴿أَمَرْنا﴾ محذوف هنا لكونه ظاهرًا بيّنًا، وهو فعل الخيرات. وحذفُ أحد المفعولين أو كليهما جائز في العربية في مثل هذه المناسبات.

لقد قلت إن المحذوف هنا ظاهر بيّنٌ، لأن القرآن الكريم قد أكد مرة بعد أخرى أن الله ﷻ لا يأمر إلا بالخير، كما صرح الله تعالى في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يأمُرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُرْبى ويَنهَى عن الفحشاءِ والمنكَرِ والبَغيِ يَعِظُكم لعلّكم تَذكَّرون﴾(النحل: ٩١).. أي أنه تعالى يأمر بالعدل والإحسان وكذلك بالخيرِ الذي لا يمكن أن يفكر صاحبُه في الجزاء عليه.

وقال الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بالْفَحْشَاءِ﴾ (الأعراف: ٢٩)

وباختصار فإن المفهوم الحقيقي للآية هو أن الله تعالى عندما يريد إهلاك قوم يأمرهم بعمل الصالحات بواسطة رسول يبعث فيهم، ولكنهم بدلاً من أن ينتفعوا بهذا الإنذار يزدادون عصيانًا لأوامره ﷻ، فيُهلكهم.

علمًا أن قوله تعالى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ لا يعني أنه تعالى يأمر الأثرياء منهم فحسب، ذلك لأن من معاني المترَف: الذي يصنع ما يشاء ولا يُمنَع، وهذا المعنى يشمل الآثمين جميعًا، الأثرياء منهم والفقراء على حد سواء.

وقد يكون المراد أن أَمْرَنا هذا يكون أمرًا عامًّا في الحقيقة، فيرفضه المترَفون أي الجبابرة البُغاة منهم، بينما يقبَله الصلحاء من بينهم؛ ونظيره في القرآن قول الله تعالى لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُك﴾(الأعراف:١٣)، مع أن أمر السجود لم يكن موجَّهًا إليه بشكل خاص، بل كان عامًّا يشمله مع غيره.

وهكذا تمامًا يأتي كل نبي بأحكام الله التي تخصّ القومَ كله، فيؤمن بها المؤمنون، ويكفر بها الكافرون.

أما "القرية" فلم تَرِدْ هنا بمفهومها العام، بل جاءت بمعنى "أُمّ القرى".. أي القريةُ التي يختارها الله مركزًا لدعوة نبيه المبعوث في ذلك العصر؛ كما قال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا﴾ (القصص:٦٠)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

القرون: جمعُ قرن، ولها عدة معانٍ منها: كلُّ أمة هلكت فلم يبق منها أحد؛ الوقتُ من الزمان؛ أهلُ زمان واحد؛ أُمةٌ بعد أُمة. وقرنُ الشيطان وقرناؤه: أُمّته المتّبعون لرأيه، أو قوّتُه وانتشارُه وتسلُّطُه (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إنكم ستجدون أمثلة كثيرة على بعث رسول إلى كل أمة على مر الدهور منذ عصر نوح حتى اليوم .

وقوله تعالى ﴿وكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يعني أنه لا يليق بالله الخبير البصير أن يلتزم الصمت وهو يرى عبادَه في الضلال تائهين!!

وهذه الجملة أيضًا تبطل زعم أولئك الجاهلين الذين قالوا أن الآية السابقة تعني أن الله يدفع العبادَ إلى غشيان المعاصي ثم يعذبهم! فقد صرّح الله تعالى هنا أنه يرى الناسَ آثمين فيأمرهم بالكف عنها، وليس أنه هو الذي يدفعهم إلى ارتكاب الآثام.

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

العاجلةَ: عجِل الرجلُ: أسرَعَ. العاجلةُ: الدنيا (الأقرب). وقوله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ..﴾ أي الأعراضَ الدنيوية (المفردات).

جهنم: دارُ العقاب بعد الموت (الأقرب). راجِعْ لمزيد التفصيل شرح كلمات الآية رقم ٢٠ من سورة الرعد.

مدحورًا: دحَره يدحُر دُحورًا: طرَده؛ أبعدَه؛ دفَعه (الأقرب).

التفسير: لقد نبه الله تعالى الإنسانَ هنا أن لا يطمع في المنفعة العاجلة، بل يطمح إلى ما هو مبارك وإن كان آجلا.

كما نصح ﷻ الإنسانَ ألا يُعدّ الترقياتِ المادية وحدها فضلَ الله تعالى، ذلك لأن الله ﷻ يمنح بعضَ الأمم الرقي المادي أحيانًا، ولكنه لا يكون دليلاً على رضاه، لأن الرقي المادي لا يُعتبر فضلاً ورضوانًا من الله إلا إذا صحبه الرقيُّ الروحاني أيضًا.

وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿٢٠﴾

التفسير: إن ضمير المؤنث في ﴿سعيها﴾ راجع إلى الآخرة، والمعنى: أنهم يسعون للآخرة السعي المناسب للفوز بها. وقد أشار الله ﷻ بذلك إلى أنه لن ينفع أحدًا في الآخرة السعي العادي، وإنما ينفعه من السعي ما يتلاءم ومتطلبات الفوز بالآخرة.

كما نبّه ﷻ بقوله ﴿وهو مؤمنٌ﴾ إلى أن الفوز في الحياة الآخرة إنما أساسه طهارة القلب. ذلك أن الأعمال الدنيوية تنفع صاحبها في الدنيا أحيانًا بدون الإيمان أيضًا، ولكن في الآخرة لن ينفع الإنسان من أعماله إلا ما صدر عن إيمان صادق، لأن "مشكورًا" هنا يعني مقبولا، أي لن يقبَل عند الله إلا العمل الذي معه إيمان.

علمًا أن قوله تعالى ﴿وهو مؤمن﴾ لا يعني أنه لا يُقبَل العمل الحسن أبدًا إلا من المؤمن، وإنما المراد أن الذي يعمل العمل الحسن مؤمنًا بجزاء الآخرة سينال الجزاء عليه هنالك، أما الذي يعمل العمل الحسن غيرَ مؤمن بجزاء الآخرة فينال جزاءه عليه في هذه الدنيا نفسها.

كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

نُمدّ: أمدَّه؛ أمهلَه؛ أمدَّ أجلَه: أخَّره. أمدَّ الجندَ: نصرهم بجماعة. أمدَّ فلانًا بمال: أعطاه؛ أعانَه وأغاثَه (الأقرب).

محظورًا: المحظور: الممنوعُ المحرَّمُ، ومنه في القرآن ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، وقيل: مقصورًا على طائفة دون أخرى، مِن حَظَرَ الشيءَ إذا حازه لنفسه خاصة (الأقرب).

التفسير: لقد أزال الله تعالى هنا الشبهة التي قد تتولد لدى قراءة الآية السالفة، إذ قد يظن البعض أن غير المؤمن لن ينال أي جزاء على حسناته؛ لذا صرّح الله ﷻ هنا أن النصرة الإلهية نوعان: النوع الأول لا يختص بالدين والإيمان بل هو عام؛ فكل من يعمل عملاً ويسعى لهدف ينال ثمرة جهوده، سواء أكان هندوسيًّا

أو مسلمًا أو مسيحيًّا أو يهوديًّا أو غير ذلك. والنوع الآخر من النصرة الإلهية خاص بالدين، ويتلقاه المؤمن دون الكافر.

ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾

التفسير: ورد في الحديث الشريف: "عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الجنة ليتراءَون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءَون الكوكبَ الدُرِّيَّ الغابرَ من الأفق من المشرق أو المغرب.. لِتفاضُلِ ما بينهم" (مسلم: كتاب الجنة، باب ترائي أهل الجنة أهلَ الغرف).

لقد جيء بهذه الآية تدليلا على ما ذُكر في الآية السالفة، حيث قال الله تعالى: انظروا كيف آتينا كثيرًا من الكافرين الرقيَّ المادي، وليس وراءه إلا أعمالهم التي حظيت بالقبول لدينا. لقد كدحوا من أجل الدنيا فآتيناهم الدنيا. ولكن يجب ألا ينخدعنَّ أحد بهذا، فيظن أن غير المؤمنين أيضًا يمكن أن يحرزوا الترقيات العليا الحقيقية. كلا، لأن هذه الإنجازات المادية ليست بشيء إذا ما قورنت بما في الآخرة من رقي عظيم.

فالآية تحثّ المؤمنين على التنافس في الخيرات، مؤكدة أن عند الله ﷻ نعمًا عظمى، فعلى المؤمن ألا يتوقف عند حد معين من الحسنات.

لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾

التفسير: لقد بيّن الله ﷻ هنا لماذا لا يعطَى الإنسان نعمَ الآخرة بدون الإيمان. ذلك أن المرء يكون مع من يتعلق به؛ فمن كان ذا صلة بالله تعالى فلن يزال يمشي قُدُمًا مع الله تعالى، ومن كان على صلة بالآلهة الباطلة بدلاً من الله تعالى فسيكون حيث آلهته الباطلة.

علمًا أن الشرك يسبب سقوط الإنسان وتخلُّفه باستمرار. وليس في التاريخ البشري كله أمة أحرزت رقيًّا بسبب شركها، كلا، بل إن الأمة الوثنية كلما حققت رقيًّا حققته ضاربةً عقائدها الوثنية عرض الحائط، وليست عاملةً بها.

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

قضى: قضى عليه عهدًا: أوصاه. قضى العهدَ: أنفذَه. قضى إليه الأمرَ: أنهاه وأبلغه. وفي الأساس: قضى إليه أمرًا وعهدًا: وصّاه به وأَمَرَه به (الأقرب).

أُفٍّ: كلمةُ تكرُّه وتضجُّر (الأقرب).

لا تَنهَرْهما: نَهَرَ السائلَ: زجَره (الأقرب).

قولاً كريمًا: أي سهلاً ليّنًا (الأقرب).

التفسير: يخبرنا الله ﷻ الآن كيف يستطيع الإنسان حماية نظامه، حيث أورد هنا ملخص تعاليم القرآن الكريم، منبِّهًا أنه لا بد للناس من مراعاة هذه الأحكام والالتزام بها في أيام إيمانهم، لينجوا من الانحطاط، وإلا لن يستمر رقيه.

لقد أمر القرآن الكريم بإقامة التوحيد وردِّ الشرك أولاً وقبل كل شيء، لأن الأمم عندما تنال الحُكْمَ والسلطان تتسرب إليها الأوهام والوثنية بشتى أنواعها، لذا قرن الله ﷻ أنباء الرقي بالتحذير من الأخطار القادمة لنأخذ الحذر منها.

وقد قدّم القرآن الأمرَ بإقامة التوحيد ورفضِ الشرك على كل الأحكام الأخرى لأن الإثم لا يتولد بدون الشرك. وأرى أن كل المعاصي هي في الحقيقة فروع لشجرة الشرك والوثنية، إذ لا يرتكب الآثم أي إثم إلا لأنه في الواقع لا يؤمن

بذات الله وصفاته إيمانًا كاملا، ولا يتوكل عليه ﷻ توكلا كاملا. إن عقيدة التوحيد إنما هي بمثابة البذرة للحسنات، وهي المحور للأديان كلها والأخلاق بأسرها، وإنكار التوحيد يُؤدي إلى زعزعة أسس قانون الطبيعة وقانونِ الشريعة كليهما. وعلاقة التوحيد بقانون الشريعة غنية عن البيان، وأما علاقته بقانون الطبيعة فاعلم أن التقدم العلمي والرقي المادي كله مرتبط بالتوحيد نفسه. ذلك أن الاعتقاد بأكثر من إله واحد يؤدي إلى الاعتقاد بأكثر من نظام في الطبيعة، أو على الأقل بحدوث تغيرات كثيرة باستمرار في النظام الطبيعي، ولولا وجود نظامٍ طبيعيٍ واحدٍ غيرِ قابل للتغير والتبدل لتوقَّفت كل التطورات العلمية دفعة واحدة. ذلكَ أن التقدم العلمي في شتى المجالات واختراع الأشياء المختلفة إنما أساسه وجودُ نظام موحَّد في الكون لا يتغير ولا يتبدل أبدًا. ولو أن الإنسان ظن أن الكون لا يخضع لنظام موحد أو أن هذا النظام يتغير ويتبدل من حين لآخر لما اتجه أبدًا إلى معرفة أسرار الطبيعة.

وبعد أن أمرنا الله بالإيمان بالتوحيد أوصانا بالإحسان إلى الوالدين، لأن وجودهما يوجّهنا إلى الله ﷻ. إنهما مظهر لقانون الطبيعة يأخذ بنا إلى قانون الشرع، إذ يدلنا على الذات التي هي مُبدِئ الأشياء. إن الولادة عن طريق الوالدين دليل على أن الإنسان لم يُخلق صدفةً، بل كان قبله أحدٌ غيره وقبله أحد آخر وهلم جرًّا، وهذا يمثل برهانًا على وجود البارئ ﷻ. فلولا نظام التناسل لما فكر الإنسان في هذه السلسة الطويلة التي توصله إلى المبدأ الحقيقي.

كما أن ظاهرة التناسل تحدو بنا إلى حقيقة أخرى ألا وهي أن غاية خلق الإنسان غاية عظيمة بحد ذاتها. ومن أجل ذلك كله أمرَنا الله بالإحسان إلى الوالدين بعد أن أوصانا بالإيمان بالتوحيد، لأن الشكر على نعمة يذكّر الإنسان بالشكر على نعمة أخرى.

وقوله تعالى ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ عطف على (أَنْ) الواردة في قوله تعالى ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ﴾، والتقدير: وأنْ أَحسِنوا بالوالدين إحسانًا، أي لقد أمركم الله ألا تعبدوا أحدًا غيره ﷻ، وأن تحسنوا بالوالدين إحسانًا.

ما ألطفَ هذا البيانَ وما أروعَه! فحيث إن الإنسان لا يقدر إطلاقًا على أن يجزي الله على نعمه وأياديه، فلذا قال لدى الحديث عن الله تعالى: ما دمتم لا تستطيعون أن تحسنوا إلى الله تعالى، فتَجنَّبوا ظُلمَ الشرك به على الأقل؛ أما الوالدان فقال الله عنهما: أَحسِنوا إلى الآباء كما أحسَنوا إليكم، ذلك لأن بوسع الإنسان أن يرد على ما صنع به الوالدان من جميل.

وأما قوله تعالى ﴿عندك﴾ فالمراد منه أن والديك لو كانا بكفالتك أي يسكنان في بيتك وتنفق عليهما فأيضًا لا تَقُلْ لهما ما يجرح مشاعرهما، فما بالك لو تَعرَّضا لأذاك وهما يسكنان في بيت لهما مستقل.

لقد ذكر الله هنا كفالتهما خاصة لأن العيش الدائم معًا أدعى إلى الاختلافات، وأيضًا لأن الإنسان إذا أنفق على أحد ظن أن لـــه حقًّا عليه.

و﴿أُفٍّ﴾ كلمةُ تضجُّرٍ وتضايُقٍ، وقوله تعالى ﴿ولا تَنهَرْهما﴾ يعني لا تزجُرْهما ولا توبِّخْهما.. وكأنه تعالى يقول: لا تؤذِهما بالقول ولا بالفعل.

لقد حثّ الإسلام على خدمة الوالـــدين كثيرًا، فقد قال النبي ﷺ: "مَن أَدركَ أحدَ والديه ثم لم يُغفَر له فأَبْعَدَه الله" (مسند أحمد ج ٤ ص ٣٤٤ مسند الكوفيين رقم الحديث ١٨٢٥٦).. أي من أضاع مثل هذه الفرصة الذهبية لفِعل الخير الذي يُكسِبه غفران الله ورضوانه، فلا سبيلَ لوصوله إلى الجنة.

وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

واخفضْ: خفَض الشيءَ ضدُّ رفَعه، وفي القرآن ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ للمؤمنين﴾ أي تَواضَعْ لهم. خفَض صوتَه: أخفاه وغَضَّه. وخفَض الصوتُ نفسُه: لانَ وسهُل (الأقرب).

جناح: الجناح: ما يطير به الطائرُ؛ يدُ الإنسان؛ العضدُ؛ الجانبُ؛ الكَنَف (الأقرب).

الذُّل: الانقيادُ؛ السهولة، واللينُ والتواضعُ (الأقرب).

التفسير: بهذا التشبيه اللطيف قد أوصى الله ﷻ الإنسانَ أن يكون في خدمة والديه دومًا.

كما نبه الله تعالى أن الإنسان على العموم لا يقوم بخدمة والديه كما خدماه في صغره، ولذلك أمره أن يدعو لهما دائمًا بالرحمة، حتى إذا حصل تقصير منه في خدمتهما تدارَكَه بالدعاء لهما.

والكاف تأتي للتشبيه أيضًا، فتعني جملة ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أن الوالدين يحتاجان في الكبر إلى خدمة كتلك التي يحتاجها الطفل في صغره.

لقد علّمنا الله ﷻ هذا الدعاء لسبب آخر أيضًا، ألا وهو أن الذي هو دائم الدعاء لوالديه لا بد أن يهتم بأداء واجب الخدمة تجاههما أيضًا.

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

أوَّابين: جمعُ أوّاب، وهو صيغة المبالغة من آبَ إلى الله: رجعَ عن ذنبه وتابَ (الأقرب).

التفسير: أي أنه لو صلحت نية الابن تماما فسوف يستر الله تعالى عيوبه ويسدّ أيَّ تقصير يحصل منه في خدمة والديه.

تشبه هذه الآية في مفهومها الحديثَ الشريف الآنف الذكر بأن "مَن أَدركَ أحدَ والديه ثم لم يُغفَر له فأَبْعَدَه الله ﷻ" لأنها هي الأخرى تؤكد أن الصالحين- أي الذين يعملون بالتعليم المذكور أعلاه- سيعاملهم الله تعالى بالتسامح والمغفرة.

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

لا تُبذِّرْ: بذّر المالَ: فرّقَه إسرافًا (الأقرب).

التفسير: لقد نبه الله تعالى هنا أن في مال كل إنسان حقًّا للأقارب والمساكين والمسافرين. ذلك أن أقارب المرء يساعدونه في كسب المال بطرق شتى؛ فمثلاً إذا أنفق الوالدانِ على تعليم أحد أبنائهما، فتقلَّد هذا منصبًا مرموقًا، بينما لم تتيسر لإخوته هذه السهولة من قِبل الوالدين، فلإخوته حق في ماله، إذ كان لهم جميعًا الحق في المال الذي أُنفق على تعليمه.

وأما حق المساكين والسائلين والمسافرين فقد أقرّه الله ﷻ صراحة في آية أخرى حيث قال ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(الذاريات: ٢٠)

وثمّةَ أسبابٌ وحِكم في إقرار حق المساكين في أموال الناس، ومن هذه الحِكم:

أوّلاً: أن الأيام دُوَلٌ، ففقراء اليوم كانوا أثرياء الأمس، وأثرياء اليوم كانوا فقراء الأمس؛ وبما أن فقراء الأمس كانوا قد أحسنوا إلى أثرياء اليوم عند فقرهم، فوجب عليهم الآن أن يمدّوا إليهم يد العون. ولو نظرنا إلى الدنيا من هذا المنظور

نظرةً شاملة لم نجد فيها شخصًا واحدًا مالُه مِلك خالص لـــه، بل لا بد أن يكون فيه حقوق للآخرين.

وثانيًا: إن كل ما في الدنيا من أشياء قد خلقها الله تعالى للناس عامة، لا لزيد أو لـــبكر خاصةً. فإذا أصبح أحد ذا ثروة لسبب من الأسباب فهذا لا يلغي حقوق الآخـــرين في أمواله لكونهم شركاءه على قدم المساواة في مِلكية ما في الدنيا. لا شك أن الإسلام قد أقرّ بحق زائد لصاحب الأموال لما بذَله في كسبها من جهود خاصة، ولكنه لا يعتبر هذه الأموال ملكًا لـــه كلية دون شركة أحد سواه.

أما المسافرون فمن أسباب إقرار حق لهم في أموال الآخرين أن الناس حين يسافرون إلى أرض أولئك المسافرين فإنهم يحسنون إليهم، فعليهم أيضًا أن يخدموهم حين سفرهم بأرضهم، أداءً لحق الضيافة التي قُدِّمت لهم.

وقد قال النبي ﷺ في حق ابن السبيل: إذا نـــزلتم في قرية فلكم حقُّ الضيافة لثلاثة أيام. فقال الصحابة: فإن لم يَقرُونا فماذا نفعل؟ قال النبي ﷺ: فخُذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم.*

علمًا أن هذا الحكم يخص الزمن الذي يكون فيه النظام الإسلامي قائمًا، لأن غير المسلمين أيضًا سيستطيعون عندها أن يأخذوا من هذا النظام حق ضيافتهم. والواقع أن الدنيا لو عملت بهذا التعليم لاختفى منها كثير من المفاسد التي نشأت من جراء الفنادق والحانات، ولسهُل على الفقراء أيضًا السفر- الذي هو من

---

* ورد في الحديـــث: قال النبي ﷺ: "مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرِمْ ضيفه، قالها ثلاثًا. قال: وما كرامة الضـــيف يا رسول الله؟ قال: ثلاثة أيام. فما جلس بعد ذلك فهو عليه صدقة." (مسند أحمد: باقي مسند المكثرين رقم الحديث ١١٣٠١)

وفي رواية: "عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّهُ قَال: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّكَ تَبْعَثُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ فَلا يَقْرُونَنَا، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ: إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلُوا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لهم." (صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته)

أفضل وسائل تربية الإنسان وتوعيته- إلى مختلف أنحاء العالم. ولكن الأسف أن المسلمين أنفسهم قد نسوا هذا الدرس.

الحق أن هذا الحكم العام بحسن معاملة المسافرين يقضي على كثير من الفتن في العالم، لأن النـــزاعات والحروب إنما تنشب جرّاءَ النفور والكراهية، ولكن لو كان هناك رواج عام لضيافة المسافرين لانعدمت الكراهية بين الأقوام، ولقُضي على الخصومات بين القرى والمدن؛ ذلك لأن الذين استمتعوا بضيافة بلد آخر لن يفكروا في محاربة أهله أبدًا، اللهم إلا أهل الطبائع الخبيثة الذين عددهم أقلّ نسبيًّا.

كما أن العمل بهذا التعليم يوطّد النظام في القرى والمدن، لأن مسؤولية الضيافة تقع على القرية كلها، وأداء هذه المسؤولية سوف يؤدي بأهل القرية كلهم إلى الانخراط في نظام يمكّنهم من أداء واجب ضيافة المسافرين. كما أن هذا النظام سينفعهم في أمور أخرى.

وأما قوله تعالى ﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ فاعلَمْ أن الإنفاق في المجالات المذكورة أعلاه لا يعني أن يقوم المرء بإتلاف ماله كلية، وإنما المراد به النفقات الضرورية، لا أن يُهلك الإنسان مالَه بإنفاقه فيما لا يحلّ فيه. فقد قال ابن مسعود: "التبذير: الإنفاقُ في غير حق" (ابن كثير). وهذا يعني أن الإنفاق في سبيل الدين ليس تبذيرًا، بل لو أنفق أحد كلَّ ما يملك في سبيل الله تعالى لسد حاجة دينية فلن يُعَدَّ من المبذّرين، لأنه لم ينفق في غير محله.

لقد أوضح القرآن الكريم معنى التبذير في موضع آخر حيث قال ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(الفرقان: ٦٨).. أي على المرء أن يسلك في الإنفاق طريقًا وسطًا، فلا يبالغ فيه ولا يبخل.

إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٨﴾

التفسير: يقول الله تعالى إن تبذيركم للمال يعني كفرانكم لنعمنا. لقد أعطيناكم المال لتنفقوه في محله، أما إذا أهلكتموه بالتبذير فرارًا من أداء الواجبات المالية التي أمرناكم بها فيكون إثمًا منكم.

ما أروعَ وألطفَ ما ردّ الله به هنا على الرهبانية وما شاكلها من الطرق الخاطئة. ما هي الرهبانية؟ إن هي إلا أحد طرق الفرار من تحمل المسؤولية. ولا يمكن أن يسمَّى مثل هذا الفعل خيرًا، بل هو إثم بَوَاحٌ وعمل شيطاني وكفرانٌ بنعمة الله ﷻ.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

ميسورًا: الميسور: ما يُسِّرَ وهو خلاف المعسور، وهو مصدر على مفعول بمعنى اليُسر؛ السهلُ، ومنه: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلا مَيْسُورًا﴾ (الأقرب).

التفسير: لهذه الآية مفهومان عندي:

الأول: أنك إذا أعرضتَ عن الأقارب والمساكين وغيرهم.. أي لم تستطع مساعدتهم لضيق اليد.. فعليك أن تنوي في قلبك نية صادقة أنك ستساعدهم عندما يبسط الله لك؛ كما يجب أن تشرح لهم هذا الأمر بغاية اللطف والرفق.

والثاني: أنك إذا أعرضتَ عن مساعدة الفقراء ابتغاءَ رحمةٍ من ربك.. أي بفكرة أن إنفاقك عليهم سوف يؤدي إلى فساد دينهم وخلقهم.. فعليك

أن تشرح لهم ذلك بنبرة ملؤها اللطف والرقة. وكأن الله ﷻ يقول: يجب أن يكون أساس إعراضك عن الإنفاق عليهم ابتغاء رحمة الله لهم، وليس بخلا منك. فمثلاً هناك متسول سليم الجسم قوي الجثة يمد يده أمام الناس، فلو امتنع أحد عن مساعدته مخافة أن تَشيع عادة السؤال في القوم فهذا جائز، شريطة ألا يكون ذلك شحًّا وبخلاً. وبالمثل لو كان المتسول مسرفًا أو مدمنًا على تعاطي الخمر أو الأفيون مثلاً، فامتنع أحد عن إعطائه شيئًا فلن يُعَدَّ آثمًا بل فاعلاً للخير؛ شرطَ أن تكون نيته أنه لو أنفق عليه فهذا سوف يدمّر صحته أكثر، ويؤدي إلى شيوع السيئة في البلد، وأن عدم إنفاقه عليه سيقضي على إدمانه، وسينفع المجتمع أيضًا. فقد ورد في الحديث الشريف أن النبي ﷺ كان يلزم الصمت عند سؤال مثل هؤلاء السائلين أو ينصَحهم. (انظر النسائي: الزكاة، باب مسألة القوي المكتسب؛ أبو داود: الزكاة)

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

مغلولةً: اسمُ مفعول من غلَّ فلانًا: وضَع في يده أو عنقه الغُلَّ (الأقرب).

محسورًا: حسَر الشيءَ: كشَفه. حسَر الغصنَ: قشَره. حسَر البعيرَ: ساقه حتى أعياه. حسَر البيتَ: كنّسه (الأقرب).

التفسير: يوصي الله ﷻ هنا ألا تجعلوا أيديَكم مغلولةً إلى الأعناق عند الإنفاق.. أي لا تتردَّدوا في الإنفاق وقت الحاجة، كما لا تبسُطوا أيديكم للإنفاق تمامًا، فتنفقوا فيما لا داعي له، بل أنفقوا عند الضرورة فقط، حتى لا يحرمكم الإنفاق في غير محله من الإنفاق في محله، فتُحرَموا من الخير.

وللإنفاق في غير محله مضرتان: إحداهما أن المنفق في غير محله يجد نفسه خاويَ الوفاض عند الضرورة الحقة، فبينما ينفق أقرانه بسخاء ينظر هو إليهم حائرًا متحسرًا، فيلومه القوم قائلين: إن البلد أو الشعب اليوم في حاجة، لكنه لا يحرك ساكنًا.

والمضرة الثانية أن المنفق في غير محله يصبح في مثل هذه المواقف محسورًا أي عاريًا.. بمعنى أنه حين يفشل في إسعاف القوم وقت الشدة يصبح هدفًا للفضيحة وتنكشف للناس معايبه، حيث يدركون أنه شخص غبي لم يقدر على حفظ ماله، وأصبح اليوم عالةً على الآخرين.

والمحسور من البيوت ما قد كُنِّس، ونظرًا إلى هذا المعنى فإن هذه الآية تعني أنك إذا لم تسلك الطريق الوسط في الإنفاق كُنِّسَ بيتك، و لم يبق فيه شيء.

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

التفسير: لقد بين الله ﷻ هنا أنه يعطي البعض بسطة في الرزق بينما يضيق على البعض الآخر رزقَه، لكي ينظر هل يعين الغنيُ الفقيرَ. فإذا حفظتم أموالكم لكي تخدموا بها عبادَ الله إلى أكثر مَدًى فهذه حسنة عظيمة جدًّا.

ما أعظمَ إعجازَ القرآن! ففي الوقت الذي كان فيه المسلمون عرضةً لصنوف المحن والتعذيب في مكة بدأ القرآن يبين لهم الأحكام التي سيحتاجون إليها زمنَ الرقي والغلبة. فهل يمكن أن يتكلم بمثل هذا الكلام إلا الذي هو قادر بالفعل على تحقيق هذه الأمور قدرة كاملة. فثبت أن هذا القرآن لم يكن من افتراء بشر، إذ لو حاول أحد من البشر النطقَ بمثل هذا الكلام.. في الفترة المكية وفي تلك الظروف الحالكة التي كان المسلمون يمرون بها.. لجَفَّ ريقُه وغُصَّ به حلقومه.

وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

إملاق: أَملَقَ الرجلُ: أنفقَ مالَه حتى افتقر (الأقرب).

خطْئًا: الخِطْءُ: الذَنْبُ؛ وما تُعُمِّدَ منه (الأقرب).

التفسير: في الركوع السالف (الآيات ٢٤- ٣١) قد أمر الله تعالى أن أحسِنوا إلى الناس، شريطة ألا يؤدي معروفكم إلى فساد الناس أكثر، أو إلى فسادكم أنتم، أما الآن فقال ﷻ: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾.. أي لا تقتلوا أولادكم خوفًا من الإنفاق عليهم. علمًا أن هذا النهي ليس عن قتل البنات، لأن القرآن الكريم لم يقل في أي موضع منه أن الناس يقتلونهن خوفًا من الإنفاق عليهن، وإنما أرجع قتلهن إلى الخزي الذي يشعر به البعض لدى ولادتهن.

كما لا يمكن أن تفسَّر هذه الآية بألا تقتلوا أولادكم بسبب الفقر والضيق المالي، لأن الإملاق لا يعني الفقر والضيق المالي، وإنما معناه الإنفاق، والمراد من هذه الآية: لا تقتلوا أولادكم خوفًا من الإنفاق عليهم.

وهنا ينشأ سؤال: هل في الدنيا أحد يقتل أولاده خوفًا من الإنفاق عليهم؟ الحق أننا لا نجد بين أصحاء العقول من يرتكب جريمة قتل أولاده خشية الإنفاق عليهم، بل لا يوجد من يفعل ذلك حتى بين أولئك الذين لا يملكون المال. فثبت أن القتل هنا لا يعني معناه المعروف، بل له مفهوم آخر، وعلينا بدراسة حياة البشر بحثًا عن هذه "الجريمة".

وحين نفحص أحوال الناس على مختلف شرائحهم نجد أن هناك فئة منهم لا تربي الأولاد تربيةً سليمة من جراء البخل والشح، حيث لا يطعمونهم كما ينبغي، أو لا يطعمونهم ما هو ضروري لنموّهم نموًّا سليمًا. مما لا شك فيه أنه لا

يوجد في الدنيا بخيل يقتل أولاده بدس السم في طعامهم أو خنق حلقومهم خوفًا من الإنفاق عليهم.. إلا بين المجانين فقط، ولكن ما أكثر ما نجد بين أصحاء العقول من يمنعه بخله من أن يهيئ لأولاده طعامًا مناسبًا ولباسًا ملائمًا، فيمرض أولاده أحيانًا لرداءة الغذاء، أو يقعون بسبب رداءة اللباس فرسى لأمراض فتّاكة كالتهاب الرئة مثلاً. وهؤلاء البخلاء يوجدون في كل أنحاء العالم بالآلاف بل بالملايين.

وقد تعني هذه الآية قتل الأولاد قتلا أخلاقيًّا وروحانيًّا، حيث لا يهيئ لهم الآباء فرصة التعليم المناسب خوفًا من إنفاق المال. لذا ينهى الله المؤمنين عن ذلك، ويوصيهم ألا يترددوا أبدًا في الإنفاق على أولادهم لضمان صحتهم وأخلاقهم.

هذا، وتشنيعًا على هذه الفعلة فقد استخدم الله ﷻ كلمة "القتل"، لأن الإنسان بفطرته يكره قتل أولاده. فالله تعالى ينبهنا أنكم لا يمكن أن تقتلوا أولادكم بأيديكم في حال من الأحوال، ومع ذلك فإنكم تقتلونهم بطرق أخرى، عندما لا تهتمون بإمدادهم بغذاءٍ ولباسٍ مناسبَين بخلاً وشُحًّا، وهكذا تدمّرون صحّتهم، أو تقصّرون في تربيتهم وتعليمهم فتقتلونهم قتلاً أخلاقيًّا.

وهناك سبب آخر أيضًا لاستخدام كلمة "القتل" وهو أن الله تعالى لو اكتفى بقوله: لا بد لكم من الإنفاق على الأولاد، لم تتم الإشارة إلى التأثيرات السلبية الأخرى غير المباشرة التي تقع على حياة الأولاد، ولكن هذا التعبير القرآني قد أدى هذا الغرض، حيث أشار إلى كافة التأثيرات السلبية الأخرى غير المباشرة التي يصبح الأولاد عرضة لها مثل عدمِ اهتمام الرجل بغذاء الأم ولباسها كما ينبغي، أو إرهاقِها بالعمل الشاق أثناء الحمل أو الرضاعة. فكلها أمور تؤثر على الأولاد سلبيًّا، فإما أن يُفقَد الجنين أو يكون المولود معتلّ الصحة.

كما يمكن تفسير هذه الآية بالمفهوم الذي ذكره بعض الصوفية وهو: لا تمنعوا الحمل مخافة أن يكثر الأولاد فلا يجدوا ما يكفيهم من الأكل، لأن هذا السلوك هو بمثابة قتل الأولاد الذي هو عمل حرام وسيئ في كل حال.

غير أن منع الحمل جائز في حالات معينة، كأن تكون المرأة مريضة. ذلك أن العذر المرفوض في صدد قتل الأولاد – وهو خشية الإملاق – عذر موهوم غير مشهود، ومثل هذا العذر مرفوض لمنع الحمل أيضًا؛ أما منع الحمل بناء على عذر ملموس وخطر مشهود فليس بمحظور.

وإضافةً إلى منع الحمل فإن إجهاض الجنين أيضًا جائز في بعض الحالات، كأن تكون الحامل مهدَّدةً بخطر الموت إذا ما تمت الولادة بطريقة طبيعية. ذلك أنه لا يمكن الجزم بما إذا كان الجنين سيولد حيًّا أم ميتًا، وهل سيعيش بعد الولادة أم لا؛ ولكن الأم موجودة كعضو مفيد في المجتمع، فلذلك سوف ترجَّح الخسارة المؤكدة على الخسارة الموهومة، فيتم إجهاض الجنين.

وإذن فقد ربَط القرآن الكريم النهيَ عن قتل الأولاد بشرط "خشية إملاق" ليلقي الضوء على موضوع واسع يشمل الاهتمام بتوعية الأولاد ورعايتهم، والحفاظ على صحة الأم وحياتها الغالية. وهذا جانب آخر من الإيجاز القرآني المعجز الذي يستحيل أن يوجد له نظير في أي كتاب آخر، بل الحق أنه موضوع فريد من نوعه لم يتطرق إليه أي سفر من الأسفار السماوية إلا القرآن الكريم.

أما قوله تعالى ﴿إِنَّ قَتْلَهم كان خِطْئًا كبيرًا﴾ فاعلم أن هناك فرقًا بين الخِطْء والخَطَأ، لأن الخِطْءَ هو ما تُعمِّدَ من الذنوب، أما الخَطَأ فيعني المتعمَّد منها أو غير المتعمَّد. إذن فباستخدام كلمة "الخِطْء" قد أشار القرآن الكريم إلى أن قتل الأولاد جريمة تمجّها الفطرة وترفضها.. بمعنى أنه لا يمكن أن يأتي هذه الفعلةَ الشنيعة إلا الذي ماتت أحاسيسه الفطرية.

ويؤكد التعبير القرآني ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أيضًا أن القتل هنا لا يعني الذي يتم بسُمٍّ أو سلاح، لأن هذا التعبير يوحي أن هذا النوع من القتل يتم بكثرة، ولكنا لا نجد أبدًا ظاهرة قتل الأولاد بأيدي الوالدين في أي بلد بكثرة بحيث يُعَدَّ جريمةً عامة.

ومما يدل على أن القتل هنا لم يرد بمعناه المادي أن القرآن الكريم قد تناول أحكام القتل منفصلةً فيما بعد، وتلك الأحكام تشمل قتل الأولاد أيضًا. فثبت من ذلك أن القتل هنا له مفهوم خاص.

وبيّن بقوله تعالى ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أن رزق الأولاد مشمول في رزق الوالدين، فيجب ألا يُحرَموا منه؛ ولأجل ذلك قال ﴿نرزُقهم﴾ قبل ﴿وإياكم﴾.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

فاحشة: ما يشتدّ قبحُه من الذنوب؛ وقيل: كلُّ ما نهى الله عنه (الأقرب).

التفسير: لقد جاء النهي عن الزنا هنا بعد النهي عن قتل الأولاد فورًا، وفيه إشارة لطيفة إلى أن الزنا أيضًا يؤدي إلى قتل الأولاد؛ وذلك لسببين: أولهما أن الناس يسعون عمومًا لإجهاض جنين الحرام، وثانيهما أنه إذا لم يتم التخلص من جنين الحرام فإن الأب لا يساهم – في الغالب – في تنشئة وتربية ولده الحرام بشكل علني، ومن ثم يدمَّر مستقبل الطفل عمومًا، ويعيش محرومًا من الوارث الذي من واجبه أن يتولى رعايته.

وباستخدام كلمات "ولا تَقرَبوا الزنا" نبّهنا الله إلى ضرورة تجنب مواقع الزنا أصلاً.. فعلى المرء ألا يلتقي المحارمَ على انفراد، ويتجنب الاختلاط بهن قدر الإمكان وما إلى ذلك من مواقع الزنا.

واعلم أنه من فضائل القرآن الكبرى أنه لا ينهى عن الإثم فحسب، بل يدل على الوسائل التي تُجنِّب الإنسانَ ارتكابه؛ ولا شك أن مثل هذا التعليم وحده كفيل بحماية المجتمع الإنساني. أما الكتاب الذي لا يدل الإنسان على ما يساعده على تجنب المعصية فإنه يدفعه إلى الحيرة والارتباك. وإنما يجلب للإنسان الطمأنينةَ والسكينةَ الكتابُ الذي ينهاه عن شيء ثم ينبهه على وسائل التجنب منه، لكي

يطمئن الإنسان أن بإمكانه العمل بما أُمر به. وعلى سبيل المثال، يقول الإنجيل: لا تَنظُرْ إلى امرأة بنيّة سيئة، ولكن القرآن الكريم ينهى عن النظر إلى المحارم أصلاً. ذلك لأنه إذا أُفسِحَ المجال للشهوة التي تخلق الزلّة في القلب فاجتنابها يصبح صعبًا جدًّا إن لم يكن مستحيلاً. ومن أجل هذه الحكمة يوصينا الله تعالى هنا أن نقف بعيدين عن مواقع الإثم بحيث نظل قادرين على مكافحته.

لقد طعن البعض في هذا التعليم فقالوا: هذا جبن! ولكنه ليس من الجبن في شيء، وإنما هو الحيطة والحذر؛ وليس ثمة عاقل يعتبر الحذر جبنًا. ذلك أن الناس نوعان: أولهما مَن يقدر على تجنب المعصية وإن قارَبَها، وقد أُمر هذا بالابتعاد عن مواقع الإثم لأنه وإن كان قادرًا على تجنب ارتكاب الإثم رغم مقاربته له، بيدَ أنه قد يتسبب في اقتراب بعض الضعفاء الآخرين من مواقع المعصية، فيقعون فريسة لها لضعفهم. فعليه ألا يكون حجر عثرة للآخرين.

والنوع الآخر منهم من لا يقدر على اجتناب المعصية إذا ما توفرت دواعيها. والحكمة في نهيهم عن الاقتراب من مواقع الإثم واضحة. فسواء كان الإنسان قادرًا على تجنب المعصية رغم الاقتراب من مَواقعها أم لا، عليه عدم الاقتراب من مسبباتها.

كما أن المرء إذا ابتعد عما فيه مصلحة لـــه ونفع فيمكن أن يسمى عملُه هذا جبنًا، ولكن ابتعاده عما ليس فيه منفعة ولا مصلحة لا يُعَدُّ جبنًا أبدًا.

وأما قوله تعالى ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ فقد نبّه به أن في الزنا مضار عديدة أخرى بالإضافة إلى كونه معصية أخلاقية. فمثلا من يريد الزواج يأخذ في الحسبان أن تكون الفتاة جيدة الصحة، وبريئة من أي عدوى، وذات خُلق وسيرة طيبة، وكذلك يحسب أولياء الفتاة ألف حساب في شأن الفتى. ولكن هذه التدابير لا تُتخذ وقت الزنا، لأنه لا يُرتكب إلا عند هيجان العواطف الشهوانية، حين لا يمكن لمرتكبه أن يتخذ أي حيطة، وتكون النتيجة تَفشِّي الكثيرِ من الأمراض

والدمار الاقتصادي. ومن أجل ذلك حذر الله تعالى منه، وقال إن إشباع الرغبات الشهوانية بهذا الطريق خطير جدًّا.

ومع أن العلاقة التي تتم بين الزاني والزانية تشبه العلاقة التي تتم بين الزوجين، إلا أنه من الملاحظ أن الأمراض التي يورثها الزنا لا تفشو بين المتزوجين، أو تكون في حكم النادر. لو فحصتم حالات المصابين بالزُّهري والسيلان في العالم لوجدتم أن عدد الذين أصابتهم هذه العدوى من زوجاتهم لا يتجاوز حتى الواحد بالمائة، بينما التسعة والتسعون بالمائة منهم أو أكثر يصابون بهذه العدوى جراء الزنا. والحق أن تناقُلَ هذا المرض بين الزوجين أيضًا عائد إلى حادث زنا فيما سلف.

فبقوله ﴿وساءَ سبيلا﴾ قد نبهنا الله تعالى إلى حقيقة عظيمة جليّة للجميع، ولكن قليل هم الذين يهتمون بها.

وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

سلطانًا: السلطان: الحجةُ؛ التسلطُ؛ قدرةُ الملك (الأقرب).

فلا يُسرِفْ: أسرفَ في كذا: جاوَزَ الحدَّ فيه وأفرطَ (الأقرب).

التفسير: كان الحديث في الآيتين السالفتين عن اثنين من أساليب القتل الخفي، أما الآن فقد أصدر الله تعالى حكمَه في القتل العلني، فقال: يجب ألا تُقتَل النفسُ التي حرّم الله تعالى قتلَها إلا بالحق.

لقد قال ﴿إلا بالحق﴾، لأن النفس تطلق على كل كائن متنفس، فتندرج تحتها أيضًا الحيوانات بكافة أنواعها، بل تؤكد البحوث العلمية المعاصرة أن النباتات أيضًا تتنفس (The Plant World, Vol. ٥ P. ١٩). فجيء بهذا الاستثناء لأن قتل الأشياء الأخرى ليس محظورًا في حد ذاته، إلا في الحالات الخاصة؛ فمثلا يحرُم قتلُ أي حيوان في الحرم الشريف، كذلك يحرُم قتلُ حيوان هو مِلكٌ لأحد، كما يحرُم قتلُ الحيوانات التي هي حلال بأي طريق غير طريق الذبح. فقوله تعالى ﴿إلا بالحق﴾ حقق هدفين؛ أولهما تخصيص هذا الحكم بالناس دون غيرهم من الحيوانات، وثانيهما استثناء أولئك الذين يجوز قتلهم لبعض الأسباب، كالذي يقتل غيره، أو الذي يهاجم الآخرَ بنية القتل.

كما أُشير بلفظ ﴿إلا بالحق﴾ إلى أن قتل مثل هذا الشخص جائز فقط إذا مُنح الحق لقتله من عند الله تعالى. وكأنه ﷻ يقول: كما أن النهي عن القتل صادر من عندي كذلك يجب أيضًا أن يؤخذ مني أنا الإذن لقتل أحد. وهذا الشرط الإلهي قد قلل فُرصَ الحروب، كما ضيق نطاق خيار الحكومة في شأن إصدار عقوبة الإعدام. وعلى سبيل المثال لو قتلت القابلةُ الوليدَ بحجة أن أمه قد أمرتْها بقتله، أو لو أمَر الحاكم بقتل بريء ظلمًا، فلن يُعَدّ الحاكم أو القابلة بريئًا من الجريمة، وذلك بفضلِ شرطِ ﴿إلا بالحق﴾، لأن قتل نفس من النفوس إنما يجوز لأحد فقط إذا مُنح حقَّ قتلها من قِبل خالقها.

وأما قول الله تعالى ﴿ومَن قُتل مظلومًا فقد جعلنا لوليِّه سلطانًا فلا يُسرِفْ في القتل﴾، فاعلم أن ولي المرء هو كل مَن يرثه. وكذلك الولي مَن يعيّنه المرء لتولي أموره، كما رُوي أن الأعداء حينما كانوا يتآمرون لاغتيال سيدنا عثمان ﷺ عرَض عليه معاويةُ ﷺ أن يجعله وليًّا له ليعرف الثوار أن هناك من يأخذ ثأره، فيرتدعوا عن قتله، ولكنه ﷺ رفض عرضه قائلاً: إنني أخاف أن تقسو على المسلمين. ويُستنبط من هذا أن تعيين ولي كهذا جائز.

وأما السلطان فيعني الغلبة والحجة، فالمراد من قوله تعالى ﴿فقد جعلنا لوليه سلطانًا﴾ أننا قد منحنا وليَّ القتيلِ الخيارَ أن يشتكي إلى الحاكم فيأخذ منه حقه، ثم إذا قضى الحاكم في صالحه فله الخيار أن يقتل القاتل أو يعفو عنه. ولكن إذا أدرك الحاكم أن ولي القتيل سيعفو عن القاتل بنية شريرة فللحاكم أيضًا الحق أن يرفض العفو وينفذ الإعدام. ذلك لأن ولي القتيل إذا فشل في أداء واجبه لشرٍّ في نفسه أو لخوف من أحد فإن حق ولاية القتيل يرجع إلى الحاكم.

هذا الحكم يبقى ساريَ المفعول في قضايا القصاص كلها، ونجد خير مثال له في قرار اتخذه سيدنا علي ﷺ. فلقد رأى ذاتَ مرة شخصًا يضرِب غيره، فنهاه علي ﷺ عن ذلك، ثم أمَر المضروبَ أن ينتقم من المعتدي، فقال: لا، لقد عفوت عنه. فأدرك ﷺ أنه امتنع عن ضرب المعتدي خوفًا منه لكونه شخصًا جبّارًا. فقال علي ﷺ: لقد عفوتَ عنه تاركًا حقك الشخصي، ولكني أمارس الآن حقَّ الجماعة. ثم أمر بضرب المعتدي بمثل ما اعتدى على غيره.

أما قوله تعالى ﴿فلا يُسرِفْ في القتل﴾ فقد حمى به حقوقَ القاتل. ذلك لأن كثيرًا من الاعتداءات تقع عند القصاص، فمثلا يُقتل القاتل بطريق مؤلم جدًّا كأن يستخدم الجلاد سلاحًا غير حادّ مثلاً، أو أن يصرّ وليُّ القتيل على إعدام القاتل بينما يكون العفوَ عنه هو التصرف الأمثل.

كما أن في قوله تعالى ﴿فلا يُسرف في القتل﴾ إيماءةً إلى أنه بالرغم أن قتل النفس بالنفس هو القانون العام، إلا أنه يجب على أولياء القتيل ألا يصرّوا على القتل في كل حال، وألا يتمادَوا في مسلسل القتل، وإنما عليهم العفو عن القاتل إذا ما رأوا بارقة أمل ولو ضئيلة لإصلاحه.

الواقع أن الإسلام قد أرسى بهذا الحكم الأساسَ لأمن البلاد. إن سلام العالم إنما ينعدم نتيجة أحد السببين: أولهما عدمُ عقاب القاتل، وثانيهما إعدامه بطريقة عشوائية دون روية وتدبر. والحق أن العفو في بعض الحالات هو الأدعى والأنجع لتوطيد الأمن. ولكن القانون الرائج حاليًّا لا يمنح لأولياء القتيل خيارًا كهذا، بل

ينصّ على قتل النفس بالنفس في كل حال، مما يقضي على أمن البلاد، ويزيد نيران العداوة لهيبًا. ولو أنهم عملوا بتعليم الإسلام لقلَّت حالات القتل بشكل ملموس، ولتلاشى التباغض إلى حد كبير.

ولا يغيبنّ عن البال أنه من المحظور شرعًا أن يتولى الإنسان بنفسه إدانةَ أحد ثم ينفذ فيه العقوبة من تلقاء نفسه. ومن يفعل ذلك اعتُبر مسرفًا في القتل. ورد في الحديث أن شخصًا قال: "يا رسول الله، إن وجدتُ مع امرأتي رجلاً أُمهِلُه حتى آتيَ بأربعة شهداء؟ قال: نعم" (مسند أحمد ج ٢ ص ٤٦٥).. وقوله: أُمهله يعني هل أنتظر ولا أقتُله، بل آتي بأربعة شهداء؟! وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قال لـــه: لو قتلتَه بنفسك لصرتَ مرتكبًا لجريمة القتل.

وهذا ما يؤكده قوله تعالى ﴿إنه كان منصورًا﴾، لأن معناه أن ولي القتيل سوف يتلقى النصرة من قبل الدولة؛ لذا عليه ألا يدين بنفسه أحدًا، ولا يأخذ بيده تنفيذ الإعدام، وإنما يقتصّ بوساطة الدولة.

كما أن قوله تعالى ﴿إنه كان منصورًا﴾ تأكيد لقوله تعالى ﴿فلا يُسرِفْ في القتل﴾، حيث ذكّر وليَّ القتيل أن من واجبه هو الآخر إقرار الأمن في المجتمع. فلا ينبغي له أن يعتدي عند الانتقام، متذكرًا بأن الله تعالى قد قام بحماية حقوقه، فمن واجبه هو أيضًا أن يراعي حقوق الآخرين، ولا يعتدي على أحد فيُخلّ بنظام الدولة التي دافعت عن حقوقه.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

العهد: الوصيةُ؛ الـــمَوثِقُ؛ اليمينُ يحلف بها الرجل؛ الذي يكتبه ولي الأمر للولاة إيذانًا بتوليتهم (الأقرب).

التفسير: يصير الأطفال أيتامًا على العموم نتيجة الأحداث المفاجئة بما فيها القتل والأوبئة وغيرهما، ولذا ذكّرنا الله تعالى هنا بحقوق اليتامى بعد أحكام القتل الذي يجعل الأطفالَ أيتامًا في العائلتين: عائلة القتيل وعائلة القاتل بعد تنفيذ الإعدام فيه. فيوصينا الله ﷻ: ﴿ولا تقرَبوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسنُ﴾.. أي هناك طريق واحد فقط للتصرف في مال اليتيم، وهو أن يؤدي هذا التصرف إلى زيادة هذا المال حتى ينتفع منه اليتيم. فكأنه تعالى يقول: لا ننهاكم عن التصرف في أموال اليتامى بطريق محرم فحسب، بل نأمركم بالتصرف فيها بحيث تزدهر تلك الأموال لصالح أصحابها الأيتام.

لقد بين القرآن الكريم هنا مبدءًا آخر من مبادئ النظام الإسلامي يميز الإسلام عن الديانات الأخرى. فكل دين آخر يأمر بحسن معاملة اليتامى، ولـــكن ليس ثمة دينٌ يوصي بحماية أموال اليتامى واستثمارها. فكأن هذه الآية توصينا بتشكيل لجنة عامة لحماية أموال الأيتام غير البالغين. إن البلاد الغربية تعمل بهذا المبدأ في هذه الأيام، ولكن الإسلام هو الذي وَضَعَ نواة هذه الفكرة لأول مرة قبل ثلاثة عشر قرنًا.

واعلم أن قوله تعالى ﴿حتى يبلُغ أشدَّه﴾ لا يعني أن أكل أموال اليتيم جائز إذا ما شبَّ وتَرعرَعَ! ذلك لسببين: الأوّل أن البديهي أن اليتيم إذا بلغ سنَّ الرشد فلن يسمح لأحد بأكل أمواله؛ والثاني أنه لا يُعقل أن يُشرف أحد على أموال اليتيم مســـتثمرًا إياها ما دام اليتيم غير قادر على التصرف السليم فيها، ثم يبدأ في أكل هـــذه الأموال وإتلافها حين يصبح اليتيم بالغًا قادرًا على التصرف السليم! الحق أن الإسلام لا يسمح بأكل مال أحد يتيمًا كان أو غيره، إذن فهذه وصية ربانية لولي اليتيم أو للحاكم ألا يبرح محافظًا على أموال اليتيم ولا يتخلى عن أداء هذا الواجـــب قبل بلوغ اليتيم سن الرشد وكمال الشباب حيث يكون قادرًا بنفسه على حماية أمواله. فمثلاً لا يجوز للولي أن يقول عند بلوغ اليتيم الثانيةَ عشرة من

عمره مثلاً: لقد كبر هذا بما يكفي، وليَتَوَلَّ الآن حمايةَ أمواله بنفسه.

كما أن قوله تعالى هذا يتضمن الإشارة أيضًا إلى أن اليتيم إذا ما بلغ سنَّ الرشد والعقل بحيث يصبح قادرًا على حماية أمواله بنفسه، فيجب ألا يظل وليه قابضًا على أمواله بحجة أنه ما زال صبيًا غريرًا.

إذًا فبقوله تعالى ﴿حتى يبلُغَ أَشُدَّه﴾ نهى الأقاربَ والحاكمَ من أن يسلكوا أيًّا من هذين الطريقين الضارَّين باليتيم. فكثيرًا ما نرى أن أقارب اليتيم يملّون من مساعدته بعد فترة ويتخلَّون عنه، مما يضره اقتصاديًّا؛ أو أنهم لا يعطون اليتيم حقَّه رغم بلوغه سن الرشد والشباب. وما أكثرَ ما نرى مثل هذه المشاهد في الولايات الهندية، حيث يكون الأمير اليتيم قد بلغ سن الرشد والعقل، ولكن كبار الموظفين الإداريين لا يسلّمون له السلطة بحجة أنه لا يزال غير بالغ أو غير عاقل، ولا يريدون بذلك إلا تحقيق مآربهم الشخصية.

وقوله تعالى ﴿وأَوفُوا بالعهد﴾ يبدو لأول وهلة غيرَ متناسق في سياق الحديث عن اليتامى، إذ لا نرى في الظاهر أي شيء من العهد في حق اليتيم؛ ولكن الحقيقة ليست هكذا، وذلك للأسباب الآتية:

أوّلاً: لأن العهد يعني المسؤولية أيضًا، يقال: فلان وليُّ العهد.. أي سيتولى مسؤولية الحكم؛ وعليه فالمراد من هذه الجملة: عليكم بأداء مسؤوليتكم تجاه اليتامى ورعاية أموالهم ما داموا بحاجة لذلك، ورُدُّوا إليهم أموالهم في الموعد المناسب.

كما أن قوله تعالى ﴿وأوفُوا بالعهد﴾ إيماءة إلى أن حماية أموال اليتامى ليست منّةً عليهم وإحسانًا إليهم، بل هو أمر من أوامر الله تعالى ومبدأ من مبادئ نظام الإسلام؛ فلا تظنوا أنكم تُسدون بذلك معروفًا إلى اليتامى، وإنما عليكم القيام به باعتباره فرضًا واجبًا عليكم.

وثانيًا: بما أن اليتيم لا يستطيع أن يسأل وليَّه عما يحصل في أمواله من نقصان أو زيادة، لذا اعتبر الله تعالى رعاية أموال اليتيم كعهد معه ﷻ، لكيلا يأكلها أحد ظنًّا منه أن ليس هناك من يسأله عنها. فقال ﷻ: إذا أكلتموها فأنا سأحاسبكم.

وثالثًا: قد يندرج ضمن الأيتام أيضًا مَن ليس يتيمًا بالمعنى الحرفي، ولكن حاله كحال اليتامى، مثل الأقوام الضعيفة التي تضع نفسها تحت مظلة الأقوام القوية. فالله تعالى يذكّرنا هنا بحماية حقوق هؤلاء الضعفاء أيضًا، ويقول: إن بعض الأقوام يكونون بمثابة اليتامى، فإذا صارت حقوقهم في قبضتكم فمن واجبكم الإشراف عليها؛ ولكن لا تستولوا عليها للأبد بحجة الإشراف عليها، بل إذا لمستم فيهم الكفاءة لحماية حقوقهم وأموالهم فرُدُّوها إليهم.

لو أن الدنيا عملت بهذا التعليم لتلاشت كليةً هذه الكراهية والتنافر التي تتولد بين شتى الأقوام في هذه الأيام. لا شك أن الأقوام القوية تضطر في بعض الحالات لتولّي أمور الأقوام الضعيفة حفاظًا على حقوق الأخيرة، ولكن من واجب الأقوام القوية أن تردّ إلى الضعيفة أموالها وحقوقها لتتصرف فيها بحرية بمجرد أن تتولد فيهم الصلاحيةُ والكفاءة لإدارة أمورهم، ويجب أن ينتهوا عن أي تصرّف في بلاد الضعفاء وأموالهم.

وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

الكيل: كالَ الطعامَ كيلاً واكتالَه بمعنى واحد. واكتالوا على الناس أي اكتالوا منهم لأنفسهم. قال ثعلب معناه: من الناس. وقال غيره: اكتلتُ عليه أخذتُ منه. يقال: كال المعطي واكتال الآخذُ، وكالَه طعامًا وكالَ له. والكيل والمِكْيَل:

ما كِيلَ به، حديدًا كان أو خشبًا. وكالَ الدراهم: وَزَنَها. كل ما وُزِنَ فقد كيل (التاج).

القِسطاس: الميزانُ؛ وأَقْوَمُ الموازين. وقيل: هو ميزان العدل (الأقرب).

التفسير: في الآية السالفة أوصانا الله ﷻ بأداء الحقوق، وهنا أيضًا قد آتانا أمرًا مماثلاً لما سبق، وقال: كما قد أمرناكم برد أموال اليتامى إليهم، كذلك نأمركم بردّ الحقوق لأصحابها في المعاملات الأخرى التي تتم بينكم.

ونبه بقوله تعالى ﴿ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾ على أن هذا العمل خير لكم دِينًا ودُنيا. ذلك أن التاجر الذي يعلَم الناسُ أنه ينقص المكيال لا بد أن تصاب تجارته بالكساد في نهاية المطاف. وكذلك الحال بالنسبة للأمة التي لا تراعي الصدق والسداد في معاملاتها.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٧﴾

شرح الكلمات:

لا تَقْفُ: قفا أَثَرَه يقفُو: تَبِعَه. قفا فلانًا بأمرٍ: آثَرَه به (الأقرب).

التفسير: اعلَمْ أن قوله تعالى ﴿لا تَقْفُ ما ليس لك به علمٌ﴾ ليس نهيًا عن تحصيل العلوم الجديدة أو عن القيام بالبحوث المبتكرة، وإنما المراد منه ألا تسيئوا الظن ولا تتّهموا الآخرين دونما تحرٍّ وتبيّنٍ؛ ومن أجل ذلك ذكَر بعدها مسببات سوء الظن، أعني الأُذن والعين والقلب. فأحيانًا يسمع المرء شيئًا عن غيره، وبناءً على ما سمعه يبدأ في معاداته دونما تحقيق وفحص؛ أو يرى حادثًا ما ويستنتج منه استنتاجًا خاطئًا دون أن يكلّف نفسه عناء التحري، فقد يكون لما اعتبره خطيئةً

ما يبرِّره ويُسوّغه. وكذلك يتولد في قلوب البعض أفكار سيئة عن الآخرين من دون أن يسمعوا أو يروا منهم شيئًا. والله تعالى ينهانا هنا عن كل تلك الأمور ويقول: لا تجرُوا وراء الظنون السيئة.

واعلم أن الأُذن هي أكبر دواعي سوء الظن، فإن الناس يسيئون الظن بالآخرين عمومًا بناء على ما يسمعون، ومن أجل ذلك ذكر الأذن قبل المسببات الأخرى. وتليها العين درجةً، ولذلك ذكرها في المقام الثاني. ثم ذكر القلب، لأن أسوأ الناس ظنًّا من لا يسمع أي شيء ضده، كما لا يرى أي أمر مريب، وإنما يختلق من عند نفسه ما يسيء به الظن بالآخرين فيُبغضهم. ولكن بما أن هذا النوع من الظن قليل الوجود لذلك ذُكر هنا في الأخير، لأن المصابين بالأمراض الخطيرة يكونون أقلَّ عددًا من المرضى العاديين دومًا.

أما قوله تعالى ﴿إن السمع والبصر والفؤاد..إلخ﴾ فقد نبّه به إلى أن المرء لن يُسأل عن اعتدائه على أموال الآخرين وأنفسهم فقط، بل سيُسأل أيضًا عما ناله من أعراضهم وكرامتهم. فلو أن الأُذن استمعتْ عن الغير ما لا يحلّ لها سماعه فستُسأل عنه. ولو أن العين رأت من الغير ما لا يحلّ لها رؤيته فستُسأل عنه. ولو أن القلب حمل عن غيره ما لا يحل لـــه حمله فسيُسأل عنه.

لقد آتانا الله هنا تعليمًا أخلاقيًا ساميًا جدًّا لو التزم به المرء لما بقي فيه أي نوع مـــن الرجس والدرن. على الإنسان ألا يعتمد في قراراته على الظن، وإنما على العـــلم واليقين. إن شهادة السمع أو العين أو القلب وحدها لا تكفي، بل يجب عـــلى الإنسان أن يتحرّى الأمر بكل الإمكانيات المتاحة قبل أخذ القرار. ومن

أجـــل ذلك قال الإمام أبو حنيفة – رحمه الله – مقولته الشهيرة: إذا كان هناك تسعةٌ وتسعون احتمالاً لكفر شخص واحتمالٌ واحد لإيمانه فلا تكفّروه.*

ولكـــن لا يعني هذا القول الحكيم، كما يزعم بعض الحمقى، أنه إذا كانت في أحـــد الـــناس ٩٩ وجهًا شرعيًّا للكفر فأيضًا لا تكفّروه. ذلك أن وجوه الكفر ليست أكثر من سبعة أو ثمانية: الكفر بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والدعاء، والقـــدر والبعث بعد الموت. فلو فسّرنا هذه المقولة بأنه إذا كانت في أحد ٩٩ وجهًا للكفر فلا تكفّروه أيضًا.. فلن يمكن حتى اعتبار الملحد كافرًا.

وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

مَرَحًا: مَرِحَ الرجلُ مَرَحًا: اشتدّ فرحُه ونشاطُه حتى جاوزَ القدرَ وتبختَرَ واختال (الأقرب).

لن تَخرِق: خرَق الثوبَ: مزّقه فتمزَّق. خرَق المفازةَ: قطَعها حتى بلَغ أقصاها (الأقرب).

التفسير: إلى هنا كان الحديث يدور حول الأخلاق التي لها صلة بالله تعالى أو بأناس آخرين، أما الآن فقد تحدث القرآن عن الأخلاق التي هي ذات صلة بالمرء نفسه، فقال عزّ من قائل: إذا كنت أيها الإنسان متحلّيًا ببعض المحاسن فلا تجعلها

* ونـــص العـــبارة كالآتي: "وقد ذكروا أن المسألة المتعلقة بالكفر: إذا كان لها تسع وتسعون احـــتمالاً للكفر واحتمال واحد في نفيه، فالأَولى للمفتي والقاضي أن يعمل باحتمال النفي، لأن الخطأ في إبقاء ألفِ كافرٍ أهونُ من الخطأ في إفناء مسلم واحد." (شرحُ الفقه الأكبر ص ١٩٧)

سببًا للزهو والكبرياء، لأن هذا سيحرمك الخيرات، ولن تقدر على إحراز المزيد من التقدم؛ لأن المتكبر يفكر أنه قد بلغ أوجَ الكمال، وبالتالي يُحرَم المزيدَ من الرقي.

كما نبّه ﷻ بذلك أن نجاحك، يا ابن آدم، نجاح محدود داخل نطاق القدرة الإنسانية على كل حال؛ فلا تفرح إلا الفرحة التي هي مقدَّرة للإنسان. وتَذكَّرْ أنك لن تقدر، رغم كفاءاتك وقدراتك، على خرق الأرض، أي على الخروج منها. يقال: خرق المفازةَ أي قطعَها حتى بلَغ أقصاها، وهذا المعنى نفسه ينطبق هنا، والمراد أنك لن تعيش إلا في هذا العالم المحدود، وأن إنجازاتك أيضًا محدودة على كل حال؛ فلا تسلك مسلكًا يجعل عيشك مع الآخرين صعبًا. ويعرف الذين درسوا حياة المتكبرين عن كثب أن المتكبر يعيش عيشةً مريرة جدًّا. ذلك أنه من جهة يعتبر نفسَه أعجوبة من الأعاجيب، ومن جهة أخرى يضطر للعيش مع بني جلدته؛ فيظل طيلةَ حياته في صراع مع عواطفه المتباينة المتضاربة. وتعيش العذابَ نفسه الطبقةُ المثقفة بالثقافة الإنجليزية في بلدنا في هذه الأيام، حيث يرون أنهم أفضل من إخوانهم الهنود، ولكن الأوروبيين أيضًا ينظرون إليهم بازدراء واحتقار. إنهم من ناحية لا يريدون العيش مع أبناء جلدتهم، ومن ناحية أخرى لا يتلقون ممن يقلّدونهم إلا الذل والهوان.

فالله تعالى ينصح الإنسان بأنه عائش بين أبناء جنسه لا محالة، فينبغي ألا يُنمِّيَ في قلبه أفكارًا تجعل عيشَه جحيمًا.

وأما قوله تعالى ﴿ولن تبلغَ الجبالَ طُولا﴾، فاعلم أن من معاني الجبال سيدُ القوم وعالمُهم (الأقرب). وهذا هو المعنى الذي ينطبق هنا.

لقد نبّهنا الله ﷻ بذلك على أن سيادة القوم إنما تُنال بالخدمة أو العلم. وخادم القوم وعالمهم كلاهما يكون نموذجًا مثاليًّا في التواضع، كما تقول العرب: "سيد القوم خادمُهم." أي أن سيد القوم يكون خادمًا لهم في الحقيقة. وكذلك قال الله

تعالى ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾(فاطر: ٢٩).. أي كلما ازداد الإنسان علمًا ازداد خشيةً لله تعالى. فالله تعالى قد نبه الإنسان أنك لن تنال سيادة القوم بالتكبر والغرور، ولن تُعَدّ من علمائهم، لأن التكبر سوف يباعد بينك وبين قومك، كما يُبعدك عن الله ﷻ. فإذا كنت طالبَ عزة فاعلم أن غطرستك تضر بنفسك، لأنها تحرمك مما ترومه. فلا تتكبر، بل انفَعْ قومك بما في نفسك من خير دنيوي، فتكون سيدًا لهم، وإذا كان فيك أي خير ديني فاصنَعْ به المعروف لقومك، لتكون محبوبًا عند الله تعالى.

هذا النهي عن التكبر يبلغ من الروعة بحيث يستحيل أن يقدم أيُّ كتاب سماوي نظيرَه.

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

سيِّئُه: السيِّئ: القبيحُ (الأقرب).

التفسير: هذه الجملة الوجيزة قمة في البلاغة لأنها قد حصرت البحرَ في إناء. يقول الله تعالى إن للأمور المذكورة أعلاه جوانبَ خير وجوانب شر أيضًا؛ وإنما ننهاكم عن جوانبها السيئة، ولا ننهاكم عن الحسنة منها. بمعنى أنه ليس في الدنيا أي عمل يمكن أن يُعَدَّ سيئًا على إطلاقه. خذوا مثلاً توحيد البارئ، فالإيمان به حسنةٌ؛ ولكن لو أن أحدًا جعل عقيدة التوحيد هذه سببًا لنشر الفساد في الأرض، وسَبَّ آلهةَ الأمم الأخرى، لأصبح تمسكه بالتوحيد أمرًا سيئًا. وبالمثل فإن احترام الوالدين حسنة، ولكن لو أن أحدًا أشرك بالله أو ظلَم الناس طاعةً لوالديه لصار احترامه للوالدين سيئة. ولا شك أن القتل سيئة، ولكن لو أن أحدًا تجنَّبَ قتل العدو أثناء الدفاع عن الوطن أو عند القصاص اللازم لعُدَّ عدمُ قتله سيئةً. ثم إن الاقتراب من أموال اليتامى معصية، ولكن لو أن أحدًا تخلَّى عن

حماية هذه الأموال خوفًا من وقوعه في معصية التصرف الخاطئ فيها لكان فعله هذا سيئًا. وإن الأمانة في المعاملات حسنة، ولكن لو أن أحدًا ترك كسب الحلال مخافة الخيانة في معاملاته لعُدّ عمله سيئة. وضبط القُوى الشهوانية في دائرتها المحددة حسنة، ولكن لو أن أحدًا تخلى عن ممارستها كليةً واختار الرهبانية، أو مارس الشهوة في حرام، فقد أتى معصية. وسوء الظن منكر من المنكرات، ولكن لو أن أحدًا من الحراس ظن بالناس خيرًا وسمح لهم بالاقتراب مما أُوكلَ إليه حراستُه لاعتُبر عملُه سيئًا. وعدم الزهو والتكبر حسنة، ولكن لو أن أحدًا تواضع في موطن يتطلب الشجاعة والبسالة لأتى عملاً سيئًا.

ولذلك يعظنا الله تعالى أن نفقه الحكمة في تعليماته، فنستخدم كل قوة من قوانا في محلها الملائم. إنه تعالى لا ينهانا عن الانتفاع من هذه الملكات، وإنما يمنعنا من استخدامها الخاطئ.

وهذا الشرح للأعمال يبلغ من السمو والكمال بحيث إن عدم إدراك الإنسان لها هو الذي يؤدي إلى المفاسد كلها. وما أَقَلَّهم الذين يسلكون هذا الطريقَ الوسط!

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾

التفسير: سبحان الله! ما أروعَ الترتيبَ في القرآن الكريم! ففي سورة النحل أخبر الله الكفار أن الحكمة في طريقها إليكم، وأما هنا فيقول ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾، أي أن الأحكام المذكورة أعلاه بعض هذه الحكمة الموعودة، فأْتُوا بمثل هذا التعليم الحكيم من الكتب السماوية النازلة قبل القرآن إن كنتم صادقين.

لقد ذكر الله تعالى هنا بعض الوسائل التي تمكّننا من إلحاق الهزيمة بأهل الكتاب في المناظرات. فبدءًا من الركوع السابق – أي من قوله تعالى ﴿وقضى ربك ألا تعبُدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا﴾ – تناولَ بيانَ الجانب العَملي للتوحيد، فبيّن كيف نفعت عقيدةُ التوحيد الإسلامية العالَمَ بصورة عَملية، وأما الآن فذكَر الجانب الآخر للتوحيد، وأخبر أنْ ليس المشرك مَن يعبد إلهًا من الآلهة الباطلة عبادة عملية فحسب، بل إن مَن يعتقد نظريًّا أن مع الله إلهًا آخر فهو أيضًا مشرك.

وقوله تعالى ﴿فتُلقى في جهنم﴾ لا يعني وقوع المشرك في النار في الآخرة فحسب، بل إن الشرك نفسه نوع من الجحيم، ذلك أنه من المستحيل لِمَن يتخذ آلهة كثيرة أن يُرضيها كلَّها، بل لا بد أن يرضي إلهًا و يُسخط آخرَ.

ومن معاني إلقاء المشرك في جهنم أن الشرك لا دليل عليه، لذا يَظلّ المشرك على الدوام ذليلاً مُهانًا أمام الآخرين. خُذوا مثلاً المسيحيين اليوم، كيف أصبحت عقيدة الثالوث جحيمًا لهم. سلُوا أيًّا منهم، ولو كان قسيسًا كبيرًا، فلن يقدر على تقديم أي برهان على صحة عقيدة الثالوث. إن عقيدة التوحيد هي وحدها التي يرتاح بها الإنسان بالاً، ويقرّ بها عينًا.

ونبّه بكلمة ﴿ملومًا﴾ أن المشرك عُرضة للملامة دائمًا. فإذا آمن بإله تعرَّضَ لملامة إله آخر، وإذا أطاع هذا صارت نقمةُ ذاك غُلاًّ في عنقه.

ثم حذّر بكلمة ﴿مدحورًا﴾ بأن المشرك يظل في اضطراب وعذاب دائمين من جهة، ومن جهة أخرى يُلقى بعيدًا عن اللهِ ﷻ.. منبعِ الراحة والسكينة. فلا يبقى مِن هؤلاء ولا من هؤلاء.